العزيز بالله الفاطمي

دكتور علي حسني الخربوطلي

مقدمة

هذه هى أول دراسة لسيرة علم من أبرز أعلام العرب ، وهو العزيز بالله سليل الأسرة الفاطمية المجيدة ، التى ينتهى نسبها الى السيدة فاطمة ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والى على ابن أبى طالب . والعزيز بالله ، هو خامس خلفاء الدولة الفاطمية ، وثانى الخلفاء الفاطميين بالقاهرة . وهو ابن الخليفة المعز لدين الله الذى نجح فى تحقيق الحلم الكبير الذى كان يحلم به الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول ، وهو نقل الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر ، حتى ترث الدولة الفاطمية ممتلكات الدولة العباسية فى المشرق .

يجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله ، ويعتبرون عصره من أزهى العصور التى شهدتها مصر خاصة ، والعالم العربى عامة . وهم يمتدحونه فى أخلاقه ، وحكمته وسياسته ، وتسامحه ، ويعتبرون عهده هو أوج الدولة الفاطمية وذروة مجدها ويرون أنه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء . وكان اسم العزيز بالله يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، بل وفى بلاد العراق أحيانا ، وهى مركز الدولة العباسية . وأصبحت الخلافة الفاطمية فى مصر فى عهد العزيز بالله المنافس الخطير للخلافة العباسية المتداعية . وصارت الدولة الفاطمية أعظم الدول الاسلامية المعاصرة ، وموضع احترام وهيبة من جميع دول العالم فى الشرق وفى أوروبا ـ كما أصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية فى عهده .

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا عصر المعز لدين الله ، ويسلطوا عليه كثيرا من الأضواء ، باعتباره القائم بمشروع فتح مصر ، ومؤسس مدينة القاهرة ، ومنشيء الجامع الأزهر . وهم فى الحقيقة يجحدون فضل العزيز بالله . فالحقيقة التاريخية هى أن المعز لدين الله لم يحكم فى مصر سوى عامين ، ثم توفى تاركا الدولة الفاطمية لابنه الخليفة العزيز بالله ليكمل ما بدأه أبوه . ومن البديهى أن القاهرة لم تكن فى هذه السنوات القليلة قد اكتملت أو نمت ، فقام العزيز بالله باتمام مبانيها ، وعمل على تطورها ، حتى ظهرت القاهرة فى أواخر عهده فى صورتها الرائعة التى وصفها المؤرخون والرحالة الأقدمون . كما أن الخليفة المعز لدين الله قصر مهمة الجامع الأزهر على النواحى الدينية ، فعمل العزيز بالله على تطويره حتى أصبح جامعة علمية كبرى ، بمعنى الجامعة المعروف الآن ، وجعله معهدا عاليا للعلوم والفقـــه .

تطورت القاهرة فى عهد العزيز بالله تطورا كبيرا ، فلم تكن القاهرة فى عهد الخليفة المعز لدين الله سوى مكانا يقيم فيه الخليفة وحاشيته وجيشه . ثم أصبحت القاهرة فى عهد العزيز بالله مدينة عامرة ، تحفل بالمساجد ودور العلم وبالسكان والبيوت والأسواق والمرافق والحدائق .

أصبح عصر العزيز بالله هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية الذى بلغت فيه أوجها وذروتها . وأصبح لمصر فى عهده طابع خاص يميزه عن العهود التى سبقته ، وخاصة فى العصرين الطولونى والأخشيدى. واتسعت رقعة الدولة فى عهد العزيز بالله وفاقت فى اتساعها وعظمتها ما كانت عليه فى عصر أبيه المعز ، وساد الهدوء والسلام فى أرجاء الدولة ، وتمتع أهل الذمة بالتسامح والطمأنينة ، وظهرت أبهة الخلافة وعظمتها ، وزاد ثراء الدولة الى درجة كبيرة ، وأمـدنا المؤرخون الأقدمون بكثير من الصور والأمثلة لهذا الثراء والرخاء .

ويجمع المؤرخون على أن عصر العزيز بالله كان أكثر العصـــور

التاريخية فى مصر تسامحا ، فقد أطلق الحرية فى المسائل الدينية والسياسية والاجتماعية ، وساوى فى المعاملة بين العناصر المختلفة المقيمة فى مصر وسائر أقاليم الدولة الفاطمية وعمل على حفظ التوازن بينها ، فعاشت جميعها فى مجتمع واحد قوى متماسك . واستقرت الأحوال الداخلية تماما فى الدولة الفاطمية طوال عصره فلم تقم فتن أو ثورات .

وأضفى المؤرخون القدماء على العزيز بالله كثيرا من الصفات الشخصية الحميدة ، فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير ، وحب العلم والأدب ، فكان يجيد عدة لغات ويشجع العلماء والأدباء ، كما كان شاعرا مجيدا ، وأصبح عهده عصر نهضة أدبية وعلمية وفنية . وتميز العزيز بالله بالتسامح والعفو والكرم والشجاعة والاقدام وبالتقوى والورع .

ورغم هذه الصور المجيدة الباهرة التى شهدناها فى هذه المقدمة الموجزة فلم يظهر بعد كتاب يدرس سيرة العزيز بالله ، ولذا رأينا أن نفى لهذا العلم العربى بحقه علينا ، نحن العرب ، فتكون سيرته حلقة فى سلسلة تراجم غيره من أعلام العرب البارزين . والله ولى التوفيق ؟

دكتور على حسنى الخربوطلى
أستاذ التاريخ الاسلامى المساعد
بجامعة عين شمس

فجر حياة العزيز بالله فى المغرب

كانت الدعوة العباسية فى أواخر العصر الأموى الى البيت الهاشمى دون تخصيص ولذا تعاون العلويون والعباسيون ، وكلهم هاشميون ، للقضاء على عدوهم المشترك للدولة الأموية . ولكن العباسيين بعد فوزهم استبدوا بالسلطة دون العلويين ، ولذا بدأت مرحلة جديدة من صراع العلويين والعباسيين .

وفى العصر العباسى ، ظهر زعماء علويون بدأوا يحاولون انتزاع الخلافة من أبناء عمومتهم ، فكان أولهم جعفر الصادق ، حفيد الحسين بن على ، ونادى بانحصار الخلافة فى أولاد الحسين دون الحسن . وتعرف هذه الطائفة باسم (الامامية) وقد انقسمت هذه الطائفة بعد وفاة جعفر الصادق الى طائفتين . الأولى الأمامية الموسوية وهم الذين قالوا بأمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، ويعتبرونه الامام السابع .

والطائفة الثانية الامامية الاسماعيلية ، ونادوا بامامة اسماعيل ابن جعفر الصادق باعتباره أكبر أولاده . وكان اسماعيل قد خلعه أبوه من الامامة وعين بدله موسى الكاظم ولكن الشيعة لم تعترف بما فعله جعفر الصادق . ولما توفى اسماعيل فى حياة أبيه سنة ١٤٥ هـ رأى أتباعه أن الامامة يجب أن تنقل بعد وفاة جعفر الصادق الى حفيده محمد بن اسماعيل طبقا لتعاليمهم التى تنص على أن الامامة لا تنقل من أخ الى أخ بل تكون فى الأعقاب ، وأصبح محمد هذا الامام السابع وأطلق على هذه الطائفة (السبعية) لتمييزهم عن طائفة الاثنا عشرية .

كان الامام الثانى عشر من أعقاب موسى الكاظم هو محمد المنتظر ابن الحسن العسكرى بن على الهادى بن محمد الجواد بن على الرضا بن موسى الكاظم ، ودخل محمد هذا سردابا فى مدينة سامراء سنة ٢٦٠ هـ ولم يعد ، وانتظر أنصاره عودته ونادوا بأنه سيعود ليملأ الدنيا عدلا .

الدعوة الشيعية فى بلاد المغرب :

تطورت الدعوة الشيعية تطورا سريعا ، وكان قيام الدولة الفاطمية النتيجة المباشرة الرئيسية لهذا التطور . فقد اتخذت الدعوة العلوية فى عصر الدولة العباسية شكلا سريا ، لينجو العلويون من اضطهاد العباسيين لهم ، وقالت طائفة الامامية بجواز استتار الامام اذا لم تكن له قوة يتغلب بها على أعدائه .

فى عهد الخليفة المأمون ، تتبع العباسيون الامام عبد الله الرضى ، فاضطر الى الهرب مع ابنه وولى عهده أحمد فتجول فى عدة بلاد حتى استقر فى قرية سلمية قرب حمص بالشام . وأصبحت هذه القرية مركز الدعوة الشيعية . واتخذ عبد الله الرضى ثم ابنه من بعده داعية يدعى ميمون القداح . وفى عهد الامام الحسين بن على اتسعت الدعوة الاسماعيلية فى الأقطار الاسلامية . نتيجة بذل الامام الأموال ، واهتمامه بتنظيم الدعوة وبث الدعاة .

وكان أشهر الدعاة ببلاد اليمن هو ابن حوشب الذى بنى حصنا جنوبى صنعاء وزحف منه على رأس جيش تمكن به من السيطرة على أجزاء كثيرة من بلاد اليمن . وبعث ابن حوشب دعاته الى اليمامة والبحرين والهند والسند ومصر والمغرب . وكان مبعوثاه الى المغرب أبا سفيان والحلوانى .

اختار الامام الحسين أحد دعاته الممتازين لينشر الدعوة الاسماعيلية فى المغرب ، وهو أبو عبد الله الشيعى ، وبعثه الى ابن حوشب باليمن لتدريبه سنة ٢٧٨ هـ ولما علم ابن حوشب بوفاة

أبى سفيان والحلوانى بالمغرب ، أمر أبا عبد الله الشيعى أن يكمل ما بدأه الداعيان ، وقال له : ان أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان وقد ماتا وليس لها غيرك ، فبادر فانها موطأة ممهدة لك (١) .

خرج أبو عبد الله الشيعى من اليمن الى مكة زمن الحج ، والتقى بحجاج كتامة وامتزج بهم واكتسب صداقتهم ، وطلب أن يرافقهم فى طريق عودتهم الى بلاد المغرب زاعما أنه يريد مصر لطلب العلم ، واستطاع الكتاميون أن يقنعوا أبا عبد الله أن يصحبهم الى المغرب ، وهو ما كان يريده فعلا أبو عبد الله ، الذى أصبح المؤسس الحقيقى للدولة الفاطمية .

وكان التشيع قد انتشر فى بلاد المغرب على يد الامام ادريس ابن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، الذى فر من أيدى العباسيين فى موقعة فخ فى عهد الخليفة الهادى سنة ١٦٩ هـ . وأقام الأدارسة فى المغرب الأقصى دولة شيعية سنة ١٧٢ هـ التف حولها البربر ، ومن ثم أصبحت بلاد المغرب أرضا صالحة للدعوة الاسماعيلية مما مهد الطريق أمام الدولة الفاطمية .

ولما قدم أبو عبد الله الشيعى الى المغرب فى أوائل سنة ٢٨٠ هـ وجد الأمور ممهدة له كما وجد التشيع قد استقر فى عقول البربر ونفوسهم ، واعتنقه كثير من وزراء الأغالبة الذين قامت دولتهم فى افريقية (تونس) على يد ابراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ هـ . (٨٠٠ م) وظلت قائمة الى أن استولى الفاطميون عليها سنة ٢٩٦ هـ (٢) .

أعلن أبو عبد الله الشيعى لأهل كتامة غرضه الأصلى ، وأنه يكمل ما بدأه أبو سفيان والحلوانى ، وأنه البشير بالمهدى ، فالتفوا حوله

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٧٥ .

(٢) جمال سرور : مصر فى الدولة الفاطمية ص ٩ .

وأيدوه ، واستطاع بتأييدهم أن يستولى على عدة مدن بالمغرب ، وساعده على ذلك ضعف دولة الأغالبة ومساعدة الوزراء الأغالبة للدعاة الشيعية ، ونجح أبو عبيد الله أخيرا فى القضاء على دولة الأغالبة تماما ، مما ساعد على قيام الدولة الفاطمية .

قيام الدولة الفاطمية فى المغرب :

أصبح الشيعيون سنة ٢٩١ هـ لهم السلطة الحقيقية فى بلاد المغرب غرب مدينة القيروان وازداد انتشار الدعوة الفاطمية يوما بعد يوم ، وانشغلت الدولة العباسية بمشاكلها الداخلية عن مقاومة هذه الدعوة الشيعية . ورأى أبو عبد الله الشيعى بعد نجاحه الواسع أن الظروف قد حانت لقدوم عبيد الله المهدى من قرية سلمية بالشام الى بلاد المغرب . واستجاب المهدى لدعوته وبدأ خروجه الى شمال افريقية . وعلم الخليفة العباسى بخروجه ، فأمر ولاته حيث كانوا بالقبض عليه ، ولكن المهدى نجح فى الهرب من الشام ثم من مصر . ويتهم المؤرخون والى مصر محمد بن سليمان الكاتب بالاهمال فى القبض على المهدى ولذا عزله الخليفة . ونجح المهدى فى الفرار من الفسطاط فى زى التجار الى طرابلس ، حيث هجمت عصابة من البربر على قافلته فنهبتها ، ولكن المهدى نجا بحياته وخرج الى المغرب .

ونجح العباسيون أخيرا فى القبض على المهدى فى سجلماسة سنة ٢٩٦ هـ .

لم يحل سجن المهدى دون بذل أبى عبد الله الشيعى جهوده فى سبيل ارساء قواعد الدولة الفاطمية ، فقد استمر يعمل للسيطرة على مدن المغرب واحدة بعد أخرى ، وقطع الخطبة للخليفة العباسى فى القيروان عاصمة أفريقية ، وضرب عملة جديدة وألغى العملة العباسية . فكان بذلك يقضى على كل معالم السيادة العباسية .

وتوج أبو عبد الله نصره بأن قاد جيشا كبيرا أطلق سراح المهدى من سجنه بالقوة وأسرع الوالى العباسى بالفرار (١) .

غادر عبيد الله المهـــدى السجن ليتلقى البيعة فى سجلماســة ثلاثة أيام ، ثم غادرها فى طريقه الى القيروان فوصل الى رقادة حيث استقبل استقبالا حافلا . ثم استقر بالقـــيروان واتخذها عاصمته فى ربيع الثانى سنة ٢٩٧ هـ ، وتلقب المهدى بأمير المؤمنين وخطب له على منابر بلاد المغرب جميعا ، وأقبل الناس على اعتناق مذهب الاسماعيلية ، الذى أصبح مذهب الدولة الفاطمية وولى المهدى ولاته على مدن المغرب ، ونظم الدواوين والضرائب . وبدأ قيام الدولة الفاطمية بالمغرب ، التى أصبح رجلنا الخليفة العزيز بالله خامس خلفائها .

المهدى الجد الأكبر للعزيز بالله :

بدأ عبيد الله المهدى فى تدعيم أسس الدولة الفاطمية ، فعزل الولاة الكتاميين ، واستعان بآخرين ممن يوليهم ثقته . مثل حباسة ابن يوسف الذى ولاه المغرب الأدنى ، وعروبة بن يوسف الذى ولاه المغربين الأوسط والأقصى . كما أخضع قبائل صنهاجة بالمغرب الأقصى كما عمل على القضاء على دولة الأدارسة وكانت تنافس الدولة الفاطمية ، ونجح أخيرا فى القضاء عليها تماما . كما قضى على الثائر موسى بن أبى العافية الذى أعلن ولاءه لعبد الرحمن الناصر أمير الدولة الأموية فى بلاد الأندلس . وقد أصبحت الدولة الفاطمية الشيعية منافسة خطيرة للدولة الأموية السنية بالأندلس .

وبعد نجاح المهدى فى القضاء على أعدائه ومنافسيه ، بدأ فى اقامة حاضرة جديدة فى مكان متوسط من بلاد المغرب وأراد أن تكون على شكل حصن ليحتمى به هو وأعوانه ، ولتكون هذه الحاضرة

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٨٨ — ٨٩ .

مقرا للدعوة الاسماعيلية ، وعاصمة للدولة الناشئة . فاختار المهدى مكانا فى جنوب القيروان يحيط به البحر من ثلاث جهات ، وأطلق على حاضرته الجديدة اسم (المهدية) حتى اذ فرغ من تشييدها ، أقام الى جوارها مدينة (زويلة) نسبة الى احدى قبائل بلاد المغرب ليقيم فيها أصحاب الحوانيت وأسرهم .

حاول عبيد الله المهدى (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ) التوسع شرقا وغربا. أما نحو الشرق ، فقد حاول فتح مصر ثلاث مرات (٣٠١ هـ ، ٣٠٧ هـ ، ٣٢١ هـ) دون جدوى . أما فى المغرب فقد قضى المهدى على دولة الأدارسة ثم اصطدم بالدولة الأموية فى الأندلس . وامتد نفوذ الدولة الفاطمية فى جميع أرجاء شمال أفريقية ، بل هدد الفاطميون جنوب ايطاليا .

وانشغل المهدى عن متابعة محاولة فتح مصر بمشاكله الداخلية اذ ثار والياه حباسة وعروبة ابنى يوسف وساءت العلاقات بين الفاطميين والأمويين لسماحهم بالتجاء الهاربين من الفاطميين ، كما أن عبد الرحمن الناصر الأمير الأموى بالأندلس شعر بالغيرة من المهدى الخليفة الفاطمى ، فتلقب هو أيضا بلقب خليفة . ومن عوامل العداء الاختلاف فى المذهب فكان الفاطميون شيعة ، بينما كان الأمويون سنيين ، الى جانب العداء التقليدى المتوارث بين بنى هاشم وبنى أمية .

أجداد العزيز بالله :

بعد وفاة المهدى ، خلفه ابنه أبو القاسم أحمد الذى اتخذ لقب (القائم بأمر الله) وقد أخفى نبأ وفاة أبيه حتى أخمد بعض الثورات التى قامت وأشدها ثورة أهل زناتة . وفى عهد القائم برزت قبيلة صنهاجة . واحتلت مكانة قبيلة زناتة . وما لبث أن ظهر خطر جديد ، هو ثورة الخوارج بزعامة أبى يزيد مخلد كيداد الذى أغار على المهدية ، فهرب أهلها الى طرابلس وصقلية ومصر ، بل الى

الدولة البيزنطية ، واستنجد الخليفة بقبيلة صنهاجة ونجحوا فى القضاء على كيداد وسجنه ، ومات القائم فى خلال هذه الظروف .

ثم تولى الخليفة المنصور ، فانصرف اهتمامه الى تنمية موارد البلاد واعادة الأمن والهدوء بعد تلك الفترة الطويلة التى حفلت بالفتن والاضطرابات وأنشأ أسطولا كبيرا ، كما أسس مدينة المنصورية سنة ٣٢٧ هـ ، واتخذها عاصمة له . ولا شك أن انشغاله فى اصلاح ما أفسدته الثورات شغله عن فتح مصر . فترك هذه المهمة الكبرى لابنه وخلفه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى والد رجلنا العزيز بالله .

مولد العزيز بالله فى المهدية بالمغرب :

رزق الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله (واسمه الأصلى معد أبو تميم) بغلام فى سنة ٣٤٤ هـ ، سماه نزارا ، وأصبحت كنيته فيما بعد (أبو منصور) حتى اذا تولى الخلافة أصبح لقبه (العزيز بالله) .

كان مولد العزيز بالله فى مدينة المهدية ، وهى العاصمة الفاطمية الأولى التى أنشاها جده الأكبر ، مؤسس الدولة الفاطمية ، عبيد الله المهدى ، وكان المهدى فى أول عهده قد اتخذ القيروان عاصمة له ؛ حتى ثارت عليه قبيلة كتامة عندما أقدم على قتل أبى عبيد الله الشيعى خشية ازدياد نفوذه ، فخرج المهدى الى تونس يبحث عن مكان جديد يصلح لعاصمة كبرى للدولة الفاطمية الوليدة تتوفر فيه الحصانة والحماية ، حتى يعتصم بهذه العاصمة الحصينة اذا قامت فى وجهه ثورة ما . واختار المهدى هذا المكان على بعد ستين ميلا جنوبى القيروان ، ويحيط بها البحر من ثلاث جهات وأصبح مدخلها فى الجانب الغربى ، وشاد المهدى مبانيها من الصخر ، واتخذ للمدينة بابين من الحديد ، لا خشب فيهما وكان كل باب يزن ألف قنطار ، وأقام المهدى بالعاصمة الجديدة دارا

للصناعة تسع حوالى مائتى مركب ، وجعل فيها ســـوقا لكل مهنة (١) .

وتطورت مدينة المهدية سريعا ، واصبحت ابرز موانى بلاد المغرب ، وشعر المهدى فى عاصمته الجديدة بالأمان والاطمئنان فقال : « اليوم أمنت على الفاطميات » ثم أمر المهدى ببناء مدينة أخرى الى جانب المهدية ، سماها زويلة نسبة الى احدى قبائل البربر ، وجعل بين المدينتين ميدانا فسيحا .

وظلت مدينة المهدية حاضرة للدولة الفاطمية حتى ثار أبو يزيد ابن كيداد على الخليفة الفاطمى القائم ، ونجح ابنه المنصور بعد توليه الخلافة فى اخماد الثورة فاتخذ مدينة (صبرة) القريبة من القيروان عاصمة للدولة الفاطمية سنة ٣٣٧ هـ ، وأطلق عليها اسم (المنصورية) ونقل اليها أسواق مدينة القيروان فازدهرت بهـا الصناعة والتجارة (٢) .

العزيز بالله فى قصر المعز بالمغرب :

اهتم الخليفة المعز لدين الله بأن يثقف ابنه نزارا ، فيعده اعدادا سياسيا وعلميا حتى يكون جديرا بأن يكون خامس خلفاء الدولة الفاطمية ، فهو ينتسب الى أكرم أسرة فى العالم الاسلامى . وهم جميعا يتسمون باسم السيدة فاطمة بنت الرسول رضى الله عنها .

وكان المعز لدين الله على درجة كبيرة من الثقافة والعلم ، فهو يجيد عدة لغات منها اللغة التليانية التى تعلمها فى صباه بجزيرة صقلية ، واللغة الصقلبية التى كانت منتشرة فى هذه الجزيرة ، كما كان ملما باللغة السودانية ، وحرص المعز على تحصيل العلوم والآداب المختلفة واشتهر بالدراية بالسياسة والادارة ، وكان من

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ص ٢٩ – ٣١ .
(٢) انظر (المنصورية) فى معجم البلدان لياقوت .

أرشد الخلفاء الفاطميين ، مما هيـــأ له الفرص لتدعيم الدولة الفاطمية والسيطرة على جميع قبائل المغرب .

وأصبح الخليفة المعز مثالا للتقوى والورع ، والمثل الأعـلى للخليفة الصـالح ، لم يغيره الملك ولا الجاه ، ولم يعبث كما كان بعض الخلفاء الأمويين فى المشرق والمغرب يعبثون ، ولا كما كان بعض خلفاء العباسيين فى العصر العباسى الثانى ووزراؤهم وامراؤهم يفعلون . فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر ، أو خالف أوامر الدين ونواهيه ، بل كان المثل الأعلى للحاكم الذى يحافظ على أوامر الشرع ، يقضى سحابة يومه فى النظر فى شئون الرعية والحكم بما أنزل الله وأتى به الرسول ، أو فى الاطلاع والبحث والدرس ، أو فى تأليف الكتب والمقالات الى الدعاة والعمال والأمراء (١) .

وحرص المعز على توفير أسباب الرقى والرفاهية لرعاياه ، والعناية بشئون الدولة وكان يقول : « والله لقد كفينا كثيرا ممن اختصصناه منهم من أوليائنا وعبيدنا أمر دنياهم ، واطعمناهم مما نأكل وكسوناهم مما نلبس ، وشاركناهم فيما نملك . وانهم ليأكلون من ذلك ، ويلبسون ويملكون ما لا تعب ولا نصب ولا كلفة عليهم فيه ، وانا لنتعب وننصب ونتكلف ذلك لهم ، فهم على ذلك أخفض عيشا منا فيه ، وأقل تعبا واهتماما به » (٢) .

نجح المعز فى أول عهده فى القضاء على بقايا دولة الأدارسة التى حكمت بلاد المغرب الأقصى نحو قرنين ، كما نجح فى القضاء على روح الثورة تماما ، مما أتاح له الفرصة للتفرغ للفتوحات الخارجية فاهتم بجزيرة صقلية ، وكانت تخضع قبل قيام الدولة الفاطمية لدولة الأغالبة ، وكانت الدولة الفاطمية تعمل على انشاء امبراطورية كبرى فى البحر المتوسط وتريد أن تجعل صقلية قاعدة الأسطول

---

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٢٧٦ .
(٢) النعمان : المجالس والمسايرات ج ٢ ص ٢٠١ .

الفاطمى لتأمن شر غارات الروم على سواحل أفريقية ، ولتحقيق أطماع الفاطميين فى فتح مصر .

ولذا اهتم الفاطميون بتحقيق السيادة الفاطمية فى حوض البحر المتوسط فأنشأوا الموانى البحرية ، وأسسوا مدينة المهدية وجعلوها قاعدة للأسطول الفاطمى وسيطر الفاطميون على جزيرة كورسيكا وأغاروا على جنوه وسردينه وأصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية . ثم بدأ المعز يتفرغ لفتح مصر .

هذه هى البيئة التى نشأ فيها المعز بالله . قصر يحفل بالعلماء والأدباء وأب يقبل على التزود بالعلم والثقافة ، ويحرص على اتقان اللغات الأجنبية ويسخر كل وقته وجهده لتدعيم دولته من الداخل ، واتساع نفوذ الفاطميين فى الخارج وكان المعز يعد ابنه العزيز ليساعده فى تنفيذ مطامحه ومشاريعه الواسعة وليمضى فى نفس الطريق اذا تولى الخلافة من بعده .

احتفل الخليفة المعز لدين الله بختان ابنه العزيز (نزار) وأخويه عبد الله وعقيل فى سنة ٣٥١ هـ ، فى حفل بهيج لم تشهده الدولة الفاطمية من قبل ورأى أن يشرك رعيته فى هذا الاحتفال ، فحتم أن يقدم الأهلى أبناءهم الصغار ليختتنوا ، ويأخذوا من مال الدولة، مقابل ذلك قدرا من المال وبعث المعز الى ولاته فى سائر المدن ، يأمرهم بمثل ما أمر به أهالى المنصورية . وتدفقت الأموال من مدينة المنصورية ، العاصمة الفاطمية فى تلك الفترة الى الولايات المختلفة ليقوم الولاة بدفع النفقات والهدايا والمنح لآباء الصغار المختتنين واذا علمنا أن المعز كان يعطى كلا من هؤلاء الأطفـــال كسوة حسنة بعد اختتانه ، ويمنحه مبلغا من المال يتراوح بين مائة وخمسين درهما ومائتى درهم اتضح لنا مقدار الأموال التى بذلها المعز فى عاصمته وفى سائر الولايات .

ومما يدل على كثرة الأموال التى أنفقها المعز فى هذه الاحتفالات

الشعبية البهيجة التى أقامها بمناسبة ختان العزيز وأخويه ، ان المعز أرسل الى صقلية وحدها خمسين حملا من المال فى كل حمل عشرة آلاف دينار ، أى ان ما أنفق فى صقلية من الأموال ــ غير الكساء ــ بلغ أكثر من نصف مليون دينار واذا علمنا أن هذا الختان قد تم فى سنة ٣٥١ هـ ــ أى بعد انضواء جميع بلاد المغرب تحت لوائه ، وانه أنفق على ختان أبناء رعاياه فى جميع البلاد : المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وأن عدد من اختتن فى المنصورية لا يقل عن ربع مليون كما تقدم ، لأدركنا المبالغ الطائلة التى أنفقها المعز لدين الله فى سبيل ذلك .

وهذا يدل على ثراء الدولة الفاطمية العظيم كما يدل على جود المعز ورغبته فى اسعاد شعبه وكان المعز عطوفا على رعاياه ، يشفق على فقرائهم ويساعدهم على تزويج أبنائهم وكثيرا ما كان يبنى الدور للفقراء منهم . واذا وازنا بين علاقة الفاطميين والعباسيين برعاياهم وجدنا أن رعايا الفاطميين كانوا أكثر التفافا حول خلفائهم من رعايا العباسيين . ويرجع ذلك الى ضعف الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الثانى ، وهو عصر نفوذ الأتراك (١) .

---

(١) المعز لدين الله ص ٢٧٦ .

قدوم العزيز بالله إلى مصر

نشأ العزيز بالله فى بلاد المغرب ، حيث قضى صباه وشبابه المبكر ثم بدأ يشارك أباه المعز لدين الله فى أعباء الدولة ومهامها . وكان يشغل المعز منذ تولى الخلافة أن ينجح فيما أخفق فيه آباؤه وأجداده وهو فتح مصر ، كخطوة أولى لمد النفوذ الفاطمى الى بلاد الشام والجزيرة العربية ، ولترث الدولة الفاطمية أراضى الدولة العباسية التى كانت تعانى الضعف والاضمحلال . وعاش العزيز خلال هذه الظروف ، وشارك فى مشروع فتح مصر منذ مولد المشروع حتى تحقق له النجاح . وخرج العزيز بالله مع أبيه الخليفة المعز الى مصر ، وودع بلاد المغرب ، حيث ولد ونشأ ، الوداع الأخير ، ثم استقر فى مصر مع أبيه ، وما لبث بعد عامين أن تولى الخلافة الفاطمية ، وأصبحت الدولة الفاطمية فى عهده امبراطورية كبرى وشهد العالم الاسلامى فى خلافته أوج هذه الدولة وذروة مجدها .

أسباب الفتح الفاطمى لمصر :

اختار الفاطميون بلاد المغرب ليقيموا فيها الدولة الفاطمية دون غيرها لأن هذه البلاد بعيدة تماما عن مركز الدولة العباسية فى العراق مما يوفر الفرصة للفاطميين للعمل الايجابى بعيدا عن السلطة المركزية فى الخلافة العباسية ولكن الفاطميين كانوا يتمنون قيام دولتهم فى قطر يتوسط العالم العربى الاسلامى فى ذلك الحين ، مثل مصر ، اذ أن مصر تقع فى مكان يتوسط القارتين الأفريقية والآسيوية حيث يعيش العرب والمسلمون وكان المصريون أكثر استجابة للحضارة العربية من بربر شمال أفريقية .

وكان الفاطميون يحلمون باقامة خلافة علوية فى مصر وكانوا يدركون أن وجودهم فى مصر يمكنهم من التوسع شمالا وشرقا وغربا . فقد كان حكام مصر دائما يسيطرون على بلاد الشـــام ، فيقترب الفاطميون بذلك من العراق قلب الدولة العباسية ، كما يسيطر الفاطميون على بلاد الحجاز حيث الحرمان الشريفان ، فيصبحون حماة الأماكن المقدسة ، ويصبح الفاطميون أصـــحاب السلطة فى أكبر العواصم الاسلامية ، الفسطاط ودمشق ومكة والمدينة . ومن مصر يتمكن الفاطميون من التوسع غربا فى برقة وبلاد المغـــرب . كما ان مصر مفتاح البحر المتوسط ، وقد كان الفاطميون يطمحون الى السيطرة على حوض هذا البحر ، الى جانب ما تتصف به مصر من حضارة وثراء ورخاء وهدوء (١) .

ولذا نرى الفاطميين منذ اللحظة الأولى لقيام الدولة الفاطمية يعملون على فتح مصر ، وتكررت محاولتهم دون يأس أو عدول . فكانت المحاولة الأولى سنة ٣٠١ هـ ، فقد بعث الخليفة الفاطمى الأول المهدى جيشا نجح فى فتح برقة ثم الاسكندرية ، وحاولوا فتح الوجه القبلى ، ولكن الخليفة العباسى المقتدر بعث جيشا كبيرا نجح فى هزيمة الجيش الفاطمى قرب الجيزة واضطر الفاطميون الى الانسحاب الى بلاد المغرب . ولكن هذه المحاولة الفاشلة بذرت فى مصر بذور الدعوة الفاطمية الشيعية .

وفى سنة ٣٠٧ هـ بعث المهدى جيشا آخـــر نجح فى فتح الاسكندرية ثم الجيزة والفيوم ، ولكن الخليفة العباسى عاود ارسال جيشه ونجح أيضا فى هزيمة الفاطميين ، كما أحرق السفن الفاطمية وانتهت المحاولة الثانية بالاخفاق (٢) .

ثم بدأت المحاولة الثالثة سنة ٣٢١ هـ ، ودارت معارك عنيفة

---

(١) انظر كتابنا (مصر العزبية الاسلامية) ص ١١٣ .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ١٠٤ .

طويلة استمرت ثلاث سنوات الى سنة ٣٢٤ هـ وأوقع الأخشيد الهزيمة بالفاطميين فانسحبوا الى بلاد المغرب . وحينما تولى القائم الخلافة بعد أبيه المهدى بعث بجيش أواخر سنة ٣٢٣ هـ انضم اليه بعض المصريين نتيجة انتشار الدعاية الفاطمية بينهم ، ولكن الأخشيد نجح فى صد الجيش الفاطمى فعاد الى المغرب (١) .

لجأ الخليفة القائم الى الوسائل السلمية فبعث الى الأخشيد برسالة ينشد فيها صداقته ومودته . ولكن الاخشيد ماطل وسوف، فقد كان يخشى من اغضاب الخليفة العباسى ، كما أدرك مطامع الخليفة الفاطمى . حتى اذا ساءت العلاقات بين الاخشيد والخليفة العباسى الراضى ، قطع الخطبة له وذكر اســـم الخليفة الفاطمى القائم ، وعرض عليه زواج ابنته من المنصور بن القائم ، ولكن المشروع أخفق .

لم يقم الخليفة الفاطمى المنصور بمحاولة أخرى لفتح مصر . فقد انشغل باخماد الثورات والفتن ، واعادة الهدوء والاستقرار ، واصلاح ما أفسدته الثورات حتى اذا تولى الخليفة المعز لدين الله (٣٤١ هـ) عاد مشروع فتح مصر الى الوجود .

العزيز بالله يشارك فى الاستعدادات لفتح مصر :

بدأ الخليفة المعز لدين الله يضع مشروعه لفتح مصر موضـــع التنفيذ . فأخذ يستعد للفتح باستعدادات كبيرة تهيىء للمشروع فرص النجاح . بحيث لا يتعرض الفتح للعقبات والمصاعب التى صادفت المحاولات السابقة للفتح فى عهد آبائه . ووقف العزيز الى جانب أبيه فى كل خطوة خطاها .

وكرس المعز كل وقته وجهده للاستعدادات لفتح مصر .. فقد اعتبر هذا المشروع مسألة حياة أو موت بالنسبة للدولة الفاطمية

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٨٥ — ٢٨٧ .

فأنشأ الطرق وحفر الآبار وأقام الاستراحات على طول هذه الطرق . وجمع أموالا كثيرة تكفى للانفاق على المشروع .

وجمع المعز لدين الله شيوخ قبيلته كتامة ، فى ليلة باردة عاصفة وجلس يحدثهم عن مشروعه ويهيىء عقولهم ونفوسهم ليكونوا معه فى تنفيذ مشروعه الكبير . وجلس العزيز الى جانب أبيه يستمع الى حديثه لهؤلاء الشيوخ ووقفت زوجة المعز (أم الأمراء) من وراء حجاب تستمع الى ما يدور فى هذا المجلس من أحاديث . فقد شغلت الأسرة كلها أذهانها وتفكيرها بهذا المشروع العظيم .

بدأ الخليفة المعز حديثه مع شيوخ كتامة بأن أوضح لهم انه يكرس كل وقته وجهده لتحقيق مشروع فتح مصر . فقال : « أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد ، فقلت لأم الأمراء وانها الآن بحيث تسمع كلامى ، أترى اخواننا يظنون أنا فى مثل هذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والغناء ، كما يفعل ارباب الدنيا ؟ ثم رأيت أن أنفذ اليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى اذا خلوت دونكم واحتجبت عنكم وانى لا أفضلكم فى أحوالكم الا فيما لابد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من امامتكم وانى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وانى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا الا بما صان أرواحكم وعمر بلادكم ، وأذل أعداءكم وقمع أضدادكم » .

ثم اتجه المعز الى شيوخ قبيلة كتامة بالنصيحة ، فطلب منهم أن يحذوا حذوه ، ويسيروا على نهجه فى معاملة الرعايا معاملة طيبة كريمة فقال : « فافعلوا يا شيوخ فى خلوتكم مثل ما أفعله ولا تظهروا التكبر والتجبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم . وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى كتحننى عليكم ، ليتصل فى الناس الجميل ويكثر الخير وينتشر العدل » وقد كانت هذه العبارات منذ توجه بها المعز الى هؤلاء الشيوخ درسا نافعا استفاد

منه ولى عهده وابنه العزيز بالله . الذى أصبح أكثر الخلفاء الفاطميين عدلا وتسامحا واهتماما برعاياه .

ثم اتجه المعز بالنصيحة وجهة أخرى ، فقد نصح شيوخ كتامة بأن يحيدوا عن تعدد الزوجات وأشار عليهم بالزهد والتقشف ، حتى تقوى أرواحهم وأبدانهم وتصبح فى خدمة مشروع فتح مصر . فقال المعز « .. واقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثير منهن والرغبة فيهن . فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم . وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم ، ويضعف تمايزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة . ونحن محتاجون الى نصرتكم بأيديكم وعقولكم . واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمركم به رجوت أن يقرب علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم . انهضوا رحمكم الله ونصركم » (١) .

المعز والعزيز فى وداع جوهر :

خرج الخليفة المعز وولى عهده العزيز بالله لوداع القائد الباسل جوهر الصقلى وجيشه . فى اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م) وتقدم جوهر نحو الخليفة ، فقبل يد الخليفة وحافر فرسه ، وأذن له المعز بالمسير حتى اذا عاد المعز الى قصره بعث الى جوهر كل ما كان عليه من ثياب .

أنفق المعز على هذا الجيش أموالا كثيرة زادت على أربعة وعشرين مليون دينار وصحبت الحملة قافلة من الابل تزيد على الألف تحمل صناديق من الذهب للانفاق منها على الجيش . وزاد عدد الجند على مائة ألف جندى مما جعل أحد المصريين يصف كثافة هذا الجيش بهذه العبارة « مثل جمع عرفات كثرة وعدة »(٢) ووصف شاعر المعز ابن هانىء الأندلسى الجيش فقال :

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦١ .

(٢) اتعاظ الحنفا ص ٧١ .

رأيت بعينى فوق كنت أســـمع
وقـــد راعنى يـــوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق ســـــــد بمثله
فعاد غروب الشمس من حيث نطلع

وصحب الجيش أسطول فاطمى يتألف من كثير من السفن البحرية ، وتقدم الجيش شرقا نحو مصر فى نفس الطريق الذى اتخذه كل غزاة مصر الذين غزوها من الغرب . وانضم الى الجيش عدد كبير من رجال كتامة الذين اشتهروا بالشجاعة والاقدام .

الفتح الفاطمى لمصر :

كانت ظروف مصر الداخلية مهيئة للفتح الفاطمى ، فعلى الرغم من اخفاق المحاولات السابقة التى قام بها الفاطميون لفتح مصر ، فقد كان من بين المصريين من يتمنى استيلاء الفاطميين على مصر . وانتشر المذهب الفاطمى الشيعى فى معظم مدن مصر وكان بعض الأخشيديين يسمحون بالدعوة الفاطمية ويشجعونها ، وخاصة بعد النزاع العنيف بين الاخشيد والدولة العباسية ، والذى نتج عنه قطع الخطبة للخليفة العباسى والدعاء للخليفة الفاطمى . ثم انتشرت الفوضى فى مصر بعد وفاة كافور الأخشيد ، وأدرك الفاطميون ان الوقت قد حان لفتح مصر ، وخاصة أن الأحوال الداخلية فى بغداد تحول دون الخليفة العباسى وارسال الجيوش لصد الفاطميين .

خرج جوهر الصقلى على رأس الجيش الفاطمى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩) لفتح مصر ، وخطب المعز فى جنده خطبة مسهبة شرح فيها هدفه من الفتح . وهو نشر نفوذه الدينى والسياسى فى المشرق وان سياسته تقوم على قاعدة « العدل أساس الملك » وأنه يرمى الى تعمير البلاد ونصح للجنـــد الكتاميين بالطاعة والاخلاص ليتم لهم فتح المشرق كما سهل أمر

المغرب عليهم (١) . وخرج مع الجيش عدد من السفن الفاطمية وبلغ ما أنفق المعز على الجيش والأسطول أربعة وعشرين مليون دينار .

وصل جوهر الصقلى الى الاسكندرية فأصيب أهل الفسطاط بالذعر ، وبعثوا الوزير جعفر بن الفرات ليفاوض «جوهر» فى الصلح وطلب الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم . واختار ابن الفرات مندوبا عنه ينسب الى الحسين بن على يسمى أبو جعفر ليسهل التفاهم مع الفاطميين وقابل هذا الوفد جوهر الصقلى ، وأجابهم جوهر الى رجائهم ، وكتب لهم عهدا ، وعد فيه أن يطلق فيه الحرية الدينية والمذهبية لجميع المصريين ، وأن يقوم بما تطلبه البلاد من اصلاحات كما تعهد بنشر العدل والطمأنينة وحماية مصر من المغيرين .

وفى ٧ شعبان عاد الوفد الى الفسطاط وقرأ ابن الفرات العهد الذى منحه جوهر وتجادل الناس حوله ، واختلفوا فى قبوله ثم اتفقت كلمتهم على رفض الصلح وأصر الاخشيديون والكافوريون على المقاومة وهرع أهالى الفسطاط يطلبون من الشريف أبى جعفر أن يكاتب «جوهر» ليعيد عهد الأمان ، فكتب اليه يهنئه بالفتح ويسأله الأمان من جديد وقبل جوهر التماسهم وأذاع على جندهم منشورا يحرم فيه عليهم أن يقوموا بأعمال السلب والنهب والعنف ، فعاد الهدوء والاستقرار الى الفسطاط مرة أخرى .

أعلن المصريون ولاءهم للخليفة الفاطمى ، ونبذوا طاعتهم للخليفة العباسى فقد أدرك المصريون ان انتقال السلطة والنفوذ من خليفة عباسى سنى الى خليفة فاطمى شيعى لن يغير شيئا من الأوضاع السياسية أو الاقتصادية . واقتصرت معارضة الفاطميين على الكافوريين والاخشيديين الذين آلمهم ضياع السلطة منهم . وفى ٢٧ شعبان خرج الوزير ابن الفرات والأشراف والقضاة والعلماء والتجار الى الجيزة وقابلوا جوهرا وهنأوه بالفتح .

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦١ .

علم المعز بفتح مصر فأبدى فرحه وسروره فقد زال تماما النفوذ العباسى والاخشيدى من مصر ، وأصبحت مصر جزءا من الامبراطورية الفاطمية التى أصبحت تمتد من المحيط الأطلسى غربا الى البحر الأحمر شرقا . ولكن مصر لم تصبح ولاية تتبع الدولة كما كانت فى العصر الأموى والعصر العباسى . بل أصبحت قلب الدولة الفاطمية فقد انتقل المعز الى مصر ، واتخذ من القاهرة التى أنشأها جوهر عاصمة جديدة تنافس بغداد ودمشق وقرطبة والقيروان (١) .

رحيل العزيز بالله الى مصر مع أبيه :

بعد أن انتهى جوهر الصقلى من فتح مصر ، بدأ فى انشاء حاضرة جديدة للخلافة الفاطمية تحل مكان الفسطاط والعسكر والقطائع . فوضع أساس العاصمة الجديدة فى ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وسماها (المنصورية) تخليدا لذكرى المنصور والد المعز ، وظلت تحتفظ بهذا الاسم حتى قدم المعز بعد أربع سنوات فسمى عاصمته القاهرة (٢) .

وأنشأ جوهر سورا حول المدينة الجديدة وبه أربعة أبواب : باب النصر وباب الفتوح وبابا زويلة . وبنى قصرا للمعز عرف باسم القصر الشرقى الكبير . وبنى مسجدا جديدا يكون رمزا لسيادة الدعوة الفاطمية ، وهو الجامع الأزهر ، فى ٤ رمضان سنة ٣٥٩ هـ . وحذف جوهر اسم الخليفة العباسى من الخطبة والسكة ، وسك عملة جديدة ، ومنع لبس السواد وهو شعار العباسيين ، فاتخذ اللون الأخضر وأضاف الى الأذان عبارة (حى على خير العمل) (٣) ثم كتب جوهر الى المعز يدعوه للقدوم الى مصر .

استجاب المعز لدعوة جوهر ، فاستخلف بلوكين بن زيرى

---

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ١١٩ .

(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٥٨ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٣٤ .

ابن مناد الصنهاجي على أفريقية (تونس) ثم بدأ رحيله الى مصر ، يصحبه ابنه وولى عهده العزيز بالله ، وأفراد أسرته وحمل معه مبالغ ضخمة من الأموال ، وصحب كبار رجال دولته وجثث آبائه الثلاثة الذين سبقوه في الخلافة ليعيد دفنهم فى القاهرة .

وهكذا ودع المعز والعزيز بلاد المغرب الى الأبد ، ووصلا الى الاسكندرية فى ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ ، فقدم عليهما أعيان البلاد مرحبين بهما ، وخطب المعز فى مسجد الاسكندرية فذكر انه لم يقصد بدخول مصر الطمع فى اتساع ملكه أو زيادة ثرائه ، وانه أراد اقامة الحق وحماية الحجاج ، واعلان الجهاد ضد الكفار ، وانه سيعمل بما أمر به جده محمد صلى الله عليه وسلم ، ووعظ المعز أهالى الاسكندرية بعبارات مؤثرة حتى استدر دموعهم (١) .

رحل المعز والعزيز عن الاسكندرية أواخر شعبان الى القاهرة ، حيث نزل فى القصر الجديد الذى بناه له جوهر ، وسجد لله وصلى ركعتين للشكر ، وأطلق الناس على العاصمة الجديدة (القاهرة المعزية) واستقبل المعز أعيان البلاد وتقبل هداياهم ، وأمر بالافراج عمن سجنهم الأخشيديون والكافوريون .

أصبحت مصر منذ ذلك الحين دار خلافة بعد أن كانت دار امارة تابعة للخلفاء الفاطميين ببلاد المغرب ، وأصبحت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية بدلا من المنصورية ولكن انتقال الحاضرة الى القاهرة أفقد الفاطميين أفريقية (تونس) فقد أعلن شيخ صنهاجة بلكين بن زيرى استقلاله وأسس الدولة الزيرية سنة ٣٦٢ هـ . وبعد عدة سنوات ظهرت دولة الحماديين سنة ٣٩٨ هـ وفى سنة ٤٤٣ هـ اختفت السيادة الفاطمية تماما فى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر .

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٦٦ .

العزيز بالله فى القاهرة :

بدأ العزيز بالله مرحلة جديدة من حياته فى القاهرة ـ بعد انتقاله من بلاد المغرب . وأخذ ينظر الى جهود أبيه نظرة اعجاب وتقدير . فقد كان المعز يضع أسس امبراطورية فاطمية كبرى ما لبث العزيز أن تولى حكمها بعد عامين من قدومه الى القاهرة .

رحب المصريون بقدوم المعز وولى عهده العزيز . فقد كان تغيير الحكم فى مصر عاملا على تحسين أحوالهم الداخلية ، فقد وصل المصريون تحت حكم العباسيين الى درجة كبيرة من البؤس والشقاء ، وأبدى المصريون رضاءهم لقيام الدولة الفاطمية الغنية فى مصر ، ورضوا عن عهد جوهر الصقلى لهم الذى يؤمنهم فيه على أرواحهم وأموالهم ، ويضمن حياتهم مما لحقهم من ظلم حكامهم السابقين ، ومن اغارات القرامطة الذين طالما تعدوا على حجاجهم ، ومن غزوات الاغريق الذين وقع فى أيديهم اقليم كيليكيا ، وكانوا على أهبة الزحف الى الشام . كما تعهد جوهر باصلاح المساجد وتحسين السكة والغاء السخرة ، وبمنح المصريين الحرية التامة ـ مسلمين كانوا أم ذميين ـ فى اقامة شعائرهم الدينية كل حسب دينه ومذهبه (١) .

أسند المعز شئون حكم مصر الى جوهر الصقلى ، وخلع عليه خلعة مذهبة وقلده سيفا ومنحه خمسين ألف دينار . وأقر المعز الوزير جعفر بن الفرات فى منصبه ، كما أبقى على الموظفين المصريين فى وظائفهم ، وأشرك مع كل موظف مصرى موظفا آخر من المغاربة . واستمر جوهر القائد يحكم ويتولى شئون الدواوين والخراج حتى سنة ٣٦٣ هـ حيث رأى المعز أن يبعده عن الحكم حتى لا يفكر فى الاستبداد بالسلطة واستعان المعز بيعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن فى النواحى الادارية (٢) .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٧ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٥ .

وهكذا كان المعز يضع الأسس السياسية والادارية التى سار العزيز بالله ، حينما تولى الخلافة بعد عامين ، على نهجها . كما حرص المعز على نشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، باعتبار أن هذه الدعوة هى أساس الدولة والخلافة الفاطمية . فقد أمر المعز بنقش هذه العبارة على جدران مصر القديمة وهى « خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين على بن أبى طالب » (١) .

وكان المعز وابنه العزيز من الشعراء المجيدين ولذا اعتمدا على الشعراء فى الترويج والدعاية للدعوة الفاطمية . وأقبل الشعراء على الرحيل الى مصر من كل مكان . وأصبح الجامع الأزهر مركزا للدعوة الفاطمية . وعين المعز (داعى دعاة) يساعده اثنا عشر نقيبا ؛ ولكل نقيب نواب ، وكان الفقهاء يلقون كل يوم اثنين ويوم خميس محاضرات عن أصول المذهب الشيعى . وما لبث العزيز بالله بعد توليه الخلافة أن حول الجامع الأزهر الى جامعة علمية كبرى .

وفاة المعز وخلافة العزيز :

حكم المعز حوالى سنتين فى القاهرة فقد عاش معظم حياته فى بلاد المغرب . وفى عهده أنشئت مدينة القاهرة والجامع الأزهر وامتد نفوذ الفاطميين الى بلاد الشام والحجاز ونعمت مصر فى عهده بفترة من الرخاء ومظاهر العظمة والأبهة .

فقد كان المعز يجلس على عرش فخم رائع ، واستن لأول مرة اقامة الولائم فى قاعة الذهب بقصر الخليفة . وفى تلك القاعة كان ينعقد مجلس الخلافة واهتم بالاحتفال بالأعياد والمواسم واتصفت مواكب المعز بمظاهر العظمة . واشتهر المعز بالكرم والبذخ ،

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٧١ .

وبتشجيع العلماء والأدباء ، ومن أشـــــهر شعرائه ابن هانىء الأندلسى (١) الذى نظم القصائد العصماء التى مدح بها الخليفة وأشاد فيها بأحقية الفاطميين بالخلافة . كما اهتم المعز بعلم النجوم ، مثله فى ذلك مثل سائر الخلفاء الفاطميين السابقين واللاحقين ، فكان يستشير المنجمين فى مسائل حياته الخاصـــة وشئون الدولة . وأمر المعز بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق توضح جميع أقطار العالم .

توفى المعز فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ ، بعد أن حكم اربعا وعشرين سنة ، وبعد أن عهد لابنه العزيز بالله بالخـــلافة من بعده . وحزنت رعيته لوفاته ، فقد كان المعز كما وصـــفه ابن خلكان « عاقلا حازما أديبا حسن النظر فى النجابة » (٢) .

وكانت الدولة الفاطمية تتبع النظام الوراثى فى تولية الخلفاء ، فكان الخليفة حينما يشعر بقرب وفاته يعهد بالخلافة لولى عهده ، ثم تتجدد البيعة بعد وفاته له بالجامع . وكان الخليفة الجديد عادة يخفى نبأ وفاة أبيه حتى يتم ويدعم حكمه ويثبت أقدامه . فقد أخفى الخليفة القائم بأمر الله نبأ موت أبيه عبيد الله المهدى فترة ، كما أن الخليفة المنصور بالله لم يعلن عن وفاة أبيه القائم سنة ٣٣٤ هـ مدة طويلة تبلغ عامين حتى نجح فى القضاء على ثورة مخلد بن كيداد الخارجى سنة ٣٣٦ هـ . كما أخفى المعز لدين الله نبأ وفاة أبيه المنصور فترة حتى سيطر على زمام الحكم .

وأتبع العزيز بالله نفس السياسة التى إنتهجها آباؤه وأجداده . فلم يعلن عن وفاة أبيه المعز لدين الله الا بعد انقضاء شهر ، نجح خلاله فى تدعيم خلافته وهى فى مهدها . فقد مات المعز لدين الله

---

(١) مات ابن هانىء الأندلسى فى رجب سنة ٣٦٢ هـ وهو فى السادسة والثلاثين من عمره وحزن المعز على وفاته كثيرا .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

فى ١١ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ وأعلن العزيز بالله وفاته فى ١٠ من ذى الحجة من السنة نفسها (١) .

تحدث المؤرخ العربى المعاصر (الدكتور حتى) عن مميزات العصر الفاطمى فى مصر فقال : أما من الناحية السياسية فان العصر الفاطمى يعتبر بدءا لعصر جديد فى تاريخ مصر ، اذ لم تتمتع البلاد بنفوذ كامل مملوء بالحيوية ومؤسس على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمى . أما الدولتان السابقتان فلم يكن لهما سلطان قوى ولا دينى فى البلاد ، اذ كان ظهورهما وبقاؤهما راجعا الى القدرة الحربية لمن أسسهما من رجال الحرب كما كان راجعا أيضا الى الحالة السيئة التى كانت عليها الحكومة العباسية (٢) .

حفل تنصيب العزيز بالله خليفة :

شهدت القاهرة ، العاصمة الفاطمية الجديدة ، احتفالا رائعا بتنصيب العزيز بالله كثانى الخلفاء الفاطميين فى مصر . فازدانت بالرايات والأنوار الساطعة وشارك المصريون الخليفة وحاشيته هذا الاحتفال ، فخرجوا الى الحدائق العامة وشواطىء النيل وركبوا القوارب المزدانة بالأنوار وأقيم فى القصر حفل رائع ، أمه رجالات الدولة ووجوه المصريين .

وجلس العزيز بالله فى الايوان الكبير بالقصر الشرقى ، على كرسى العرش وهو سرير الملك ، وقد صنع من الذهب ، وعليه مرتبة مذهبة ، ووضع الخليفة على رأسه تاجا عظيما يسمونه بالتاج الشريف ، وهو تاج الخلافة الفاطمية ، وقد رصع بالجواهر الثمينة . وقد حذا الخلفاء الفاطميون فى هذا التقليد حذو الأكاسرة الفرس . أما قضيب الملك الذى أمسكه العزيز فى يده فى هذا الحفل فهو عود

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٢ ص ٨٠ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٠ .

طوله شبر ونصف ، ملبس بالذهب المرصع بالدر والجواهر (١) ، والتف حول العزيز الأمراء والأعيان ووجوه المصريين ، وقد وقف بعضهم أو جلس حسب مرتبته وشرفه .

وارتدى الخليفة العزيز بالله فى هذا الحفل ثيابا فخمة من الحرير الأخضر مقلدا فى ذلك أباه المعز لدين الله ، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يلبس بردين أخضرين ، وهذا ما جعل العلويين يطالبون الناس باتخاذ اللون الأخضر ، وترك اللون الأسود الذى اتخذه الخلفاء العباسيون شعارا لهم ، وكان العلويون فى أول عهدهم يتخذون اللون الأبيض شعارا لهم .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٢ .

عصر تسامح ورخاء وازدهار

مميزات عصر العزيز بالله :

تولى العزيز بالله الخلافة فى شهر ربيع الثانى سنة ٣٦٥ هـ ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره . وهو خليفة شاب فى دولة فتية، ولذا أصبح عهده العصر الذهبى للدولة الفاطمية .

قضى الخلفاء الفاطميون الثلاثة الأول ، المهدى والقائم والمنصور ، عهودهم فى ارساء قواعد الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب . وتوطيد دعائمها ، والقضاء على أعدائها . واخماد الثورات الداخلية ونجحوا فى خلق جو من الهدوء والاستقرار فى بلاد المغرب ، مما هيأ الظروف للخليفة الرابع المعز لدين الله ليضع المشروع الفاطمى الكبير لفتح مصر موضع التنفيذ . وتكللت جهـــود المعز بالنجاح والتوفيق وأصبحت الدولة الفاطمية تمتد بين الخليج العربى شرقا والمحيط الأطلسى غربا .

اعتاد المؤرخون أن يبرزوا عصر المعز لدين الله ويسلطوا عليه كثيرا من الأضواء باعتباره القائم بمشروع فتح مصر ، ومؤسس مدينة القاهرة ، ومنشىء الجامع الأزهر ، وهم فى الحقيقة يجحدون دور العزيز بالله . والحقيقة التاريخية هى ان المعز لم يحكم فى مصر سوى عامين . ثم توفى تاركا الدولة الفاطمية لابنه الخليفة العزيز بالله ليكمل ما بدأه أبوه . ومن البديهى أن القاهرة لم تكن فى هذه السنوات القليلة قد اكتملت أو نمت ، فقام العزيز باكمال مبانيها والعمل على تطورها ، حتى ظهرت فى أواخر عهده عـلى صورتها الرائعة التى وصفها المؤرخون والرحالة الأقدمون . كما أن

الخليفة المعز لدين الله قصر مهمة الجامع الأزهر على النـواحى الدينية ، وعمل العزيز بالله على تطويره حتى أصبح جامعة كبرى ، بمعنى الجامعة المعروف الآن ، وجعله معهدا عاليا للعلوم والفقه . وان كان المعز قد وضع نواة الحضارة الفاطمية فى مصر ، فقد تعهد العزيز بالله غرس أبيه حتى نما وترعرع ونضج وأتى بالثمار المرجوة .

ويجمع المؤرخون على امتداح العزيز بالله ، فى أخلاقه وعقله ، وسياسته وتسامحه ، ويعتبرونه آخر الخلفاء الفاطميين الأقوياء العظماء . وهناك فارق كبير بين العـزيز وبين من خلفه من خلفاء فاطميين مثل الحاكم بأمر الله أو الظاهر أو المستنصر أو غيره من الخلفاء . فقد أصبحت الدولة الفاطمية فى عهد العزيز امبراطورية عظمى ، واستقرت الأحوال الداخلية ، فلم تقم ثورات داخلية ذات أهمية مثل الثورات التى كانت تقوم فى عهود آبائه . وأصبحت الدولة الفاطمية موضع احترام وهيبة من جميع دول العالم فى الشرق وفى أوروبا .

وأضفى المؤرخون القدماء (١) على العزيز بالله كثيرا من الصفات الطيبة فقد اشتهر بالذكاء والعقل المستنير ـ وحب العلم والأدب ، وكان كأبيه المعز يجيد عدة لغات ، ولذا شجع العلماء والأدباء ، كما كان شاعرا مجيدا ، وتميز بالعفو والتسامح والكرم والشجاعة والاقدام .

أما المؤرخون المحدثون ، فيبرزون دائما عصر العزيز بالله عند تأريخهم للدولة الفاطمية . فقال الدكتور حسن ابراهيم حسن (٢) : يعتبر عصر الخليفة العزيز بالله عهد يسر ورخاء وتسامح دينى وثقافى ، وهو مشهور فى تاريخ مصر الاسلامية ، لأنه أول من حول

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٩ ص ٨١ ابن خلكان : وفيـات الأعيان ج ٢ ص ١٥٣ ، الثعالبى : يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٥٤ .
(٢) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٦ .

الجامع الأزهر الى جامعة بالمعنى المعروف الآن ، بعد أن كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعى وأقامة الصلاة . وقد ترامت رقعة الامبراطورية الفاطمية فى عهد العزيز بالله من بلاد العرب شرقا الى ساحل المحيط الأطلسى غربا ، ومن آسيا الصغرى شمالا الى بلاد النوبة جنوبا .

وتحت عنوان (النفوذ الفاطمى فى الأوج) كتب المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى (١) فى خلال حكم أبى منصور نزار العزيز (٩٧٥ ــ ٩٩٦ هـ) خامس خلفاء الدولة وأول من حكم فى مصر منهم ، وصلت الدولة الفاطمية الى أوجها وكان اسم الخليفة يذكر فى خطب الجمعة فى جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق ، بل فى ذات مرة فى الموصل . وقد وصلت الخلافة المصرية فى عهده الى حد أنها لم تصبح المنافس الخطير لخلافة بغداد فحسب ، بل الى حد أنها كيفت نفوذها وظفرت بأن تصبح الدولة الاسلامية الوحيدة ذات النفوذ العظيم فى شرقى البحر المتوسط . وكان العزيز أعقل وأصلح الخلفاء الفاطميين . لقد كان يعيش فى بذخ ، وشيد فى القاهرة وأرياضها كثيرا من المساجد والقصور والجسور والترع .. وقد لقى المسيحيون فى ظلال حكمه قسطا من التسامح لم يظفروا بمثله من قبل . وقد بدأ التدهور الفاطمى يسرع بعد الحكم الصالح للخليفة العزيز .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (٢) بعصر العزيز ، فقال : « كان العزيز يشبه أباه فى حبه للسياسة وادارة شئون البلاد ، ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر فى الحد من مقدرته السياسية أو الادارية . فقد بنى أسطولا ليحارب به الامبراطورية البيزنطية ، كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التى

---

(١) تاريخ العرب ص ٨١٠ .
(٢) سيرة القاهرة ص ١٣٢ .

لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . وكان عهده عهد سلام دائم في مصر ، وكان اسمه يذكر فى صلاة الجمعة فى المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسى ، كما أنه كان يقف أمـام الناس في الجامع الأزهر كرئيس دينى ودنيوى » .

ويصف (آدم متز) الخليفة العـزيز بالله فى كتابه (الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى) ، فيقول عنه انه كان أعظم الخلفاء الفاطميين (١) .

عصر تسامح دينى واجتماعى :

يجمع الفاطميون على أن عصر الخليفة العزيز بالله كان أكثر العصور التاريخية فى مصر تسامحا ، فقد أطلق الحرية فى المسائل الدينية والسياسية .

رأى الخليفتان المعز والعزيز بعد أن قدما الى مصر بمذهب شيعى خالفا به جمهور المسلمين انهما بحاجة الى من يعاونهما فى تدعيم دولتهما . ولما أيقنا أنه من المتعذر عليهما الاعتماد عـلى السنيين فى مصر أنصار الدعوة العباسية ، قربا اليهما أهل الذمة وأظهرا لهم كثيرا من التسامح واستخدموهم فى مناصب الدولة والادارة (٢) .

اعتمد الخليفة المعز لدين الله على كثير من الموظفين من أهـل الذمة واتخذ أطباءه منهم . وبرز من بين أهل الذمة فى عهـده يعقوب بن كلس ، الذى اعتنق الاسلام ، وتولى بعض دواوين الدولة الفاطمية ، وما لبث أن أصبح ابن كلس وزيرا فى عهد الخليفة العزيز بالله . واليه يرجع الفضل فى وضع نظم الدولة السياسية والادارية .

---

(١) الحضارة الاسلامية ج ١ ص ٢٤ .
(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية فى مصر ص ٨٦ .

تزوج الخليفة العزيز بالله من زوجة مسيحية ، مما جعله يتبع سياسة تسامح مع أهل الذمة ، فأعاد بناء الكنائس واحتفل بالأعياد والمواسم الدينية المسيحية وسمح للبطريق القبطى افراهام باعادة كنيسة أبى سيفين بظاهر الفسطاط وعهد الى عيسى بن نسطورس بالكتابة ، وولى العزيز أخوى زوجته المسيحية أبرز المناصب الدينية . فولى أحدهما بطريكا للملكانيين ببيت المقدس سنة ٣٧٥ هـ وولى الآخر مطرانا للقاهرة . وامتد عطف وتسامح العزيز بالله الى اليهود فولى منشا بن ابراهيم الفرار واليا على بلاد الشام .

أشاد المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) بسياسة تسامح الخلفاء الفاطميين عامة وتسامح الخليفة العزيز بالله خاصة ، فقال : « بوصول الخلفاء الفاطميين الى مصر ، بدأت فترة من التسامح الدينى واللين لا عهد لأهل الذمة بها ، فقد كان الخلفاء الفاطميون ، باستثناء الحاكم بأمر الله ، يرعون على الدوام رعاياهم المسيحيين . وكثيرا ما بنيت أو أصلحت الكنائس فى عهدهم . وقد كان للخليفة العزيز زوجة مسيحية ، وكان اثنان من اخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك اليعقوبى أفريم وشعيروس أسقف أشمونين ، كانا من خير أصدقاء العزيز — فقد كان العزيز يدعو الأسقف الى قصره ليتحدث مع رئيس القضاة فى المسائل الدينية ، كما سمح العزيز للبطريرك باصلاح كنيسة القديس مركاريوس » .

وعلق المؤرخ الألمانى الكبير (آدم متز) (٢) على تسامح العزيز مع أهل الذمة فقال : وقد أظهر الخلفاء الفاطميون الأولون لأهل الذمة تسامحا نعجب له ، اذ لا ينتظر ذلك من قوم مثلهم ، لهم مذهب خاص انفردوا به ، وخالفوا به جمهور المسلمين .

---

(١) سيرة القاهرة ص ١١٨ .

(٢) الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ج ١ ص ٩٤ .

وأبدى المؤرخ (أوليرى)[1] رأيه فى استخدام أهل الذمة فى المناصب الادارية فى الدولة الفاطمية فقال : ان استخدام المسيحيين واليهود فى المناصب الادارية والمدنية هو عرف شائع فى البلاد الاسلامية وان بالغ الفاطميون فى استعماله أكثر مما جرت به العادة من قبل .

والى جانب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها العزيز بالله ، نرى تسامحا عنصريا ، فلم يفرق العزيز فى المعاملة بين العناصر المختلفة التي كانت تقيم فى مصر وفى سائر أقاليم الدولة الفاطمية ، بل عمل على حفظ التوازن بينها وجنبها الصراع العنصرى أو الطبقى حتى تعيش هذه العناصر كلها فى مجتمع واحد متماسك .

فكان جيش العزيز بالله يتألف من جنود من عناصر مختلفة منهم العرب وقبائل المغرب من البربر ، ومن الصقالبة ، ومن الأتراك والديلم . ولم يكن العزيز بالله بقادر على أن يهمل المغاربة ، فقد قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب على عواتقهم ، وكانوا يعتنقون المذهب الفاطمى الذى هو أساس الدولة . ولذا برزت قبيلتا كتامة وزويلة المغربيتان وأراد العزيز بالله أن يحد من تضخم نفوذ المغاربة فاعتمد أيضا على بعض الأتراك ، فقد عهد الى برجوان بتربية وتثقيف ابنه وولى عهده الحاكم بأمر الله ، وولى بعض الأتراك المناصب الادارية .

كما عمل العزيز بالله على تحقيق رفاهية الشعب المصرى . نرى ذلك واضحا فيما قام به من اصلاحات كثيرة ونظم ادارية ، وفى دعوتهم الى الولائم الحافلة التى أقامها فى قصوره فى جميع المناسبات الدينية والقومية . واهتم العزيز بالاحتفال بالأعياد المصرية القومية التى اعتادوا الاحتفال بها قبل الفتح المصرى ، وخاصة الاحتفال بجبر الخليج أى وفاء النيل ، فقد كان هذا

---

(1) A Short Hiset. of the Fatîmid Khalifate, P.II4

الاحتفال من أروع الاحتفالات الفاطمية . وحرص العزيز بالله على تنفيذ ما تعهد به جوهر الصقلى للمصريين عند فتحه مصر . وأمر الخليفة المغاربة أن يسكنوا أطراف القاهرة ، ونهاهم عن مضايقة المصريين .

وجنى الخليفة العزيز بالله ثمار سياسته فى حفظ التوازن بين جميع العناصر فلم تقم فى عهده اضطرابات بين المغاربة والمصريين ، أو بين المغاربة والأتراك بينما شهد عهد ابنه الحاكم بأمر الله صراعا عنيفا بين الأتراك بزعامة برجوان والمغاربة بزعامة ابن عمار (١) .

ومن عناصر جيش الخليفة العزيز بالله ، السودانيون ، وقد تكاثر عددهم فى مصر منذ عهد كافور فى الدولة الأخشيدية . وتكاثر عدد الجند الأتراك فى عهد العزيز ، وعمل العزيز دائما على التخفيف من حدة العداء بين هؤلاء الأتراك وبين السودانيين . وكان العزيز مثل أبيه المعز يجيد اللغة السودانية .

سياسة العزيز نحو أهل السنة فى مصر :

امتدت المذاهب الاسلامية التى ظهرت فى العصر العباسى الى مصر ، وهى مذهب الامام أبى حنيفة النعمان بن ثابت (توفى سنة ١٥٠ هـ) ومذهب الامام مالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ومذهب الامام محمد بن ادريس الشافعى القرشى (ت ٢٠٤ هـ) ومذهب الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) .

وعلى الرغم من أن مذهب الامـــام أبى حنيفة أقدم المذاهب السنية الا أن مذهب مالك هو الذى دخل مصر أولا وانتشر بها . ولم يزل المصريون يتبعون مذهب الامام مالك الى أن قدم الامـــام أبو عبيد الله محمد بن ادريس الشافعى الى مصر سنة ١٩٨ هـ ،

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٤٤ ، ابن منجب : الاشارة ص ٢٧ .

وأظهر بها مذهبه الجديد ، وجعله يلائم الحياة المصرية ، فمال اليه عدد كبير من المصريين ، وصار لكل من مذهب الامام مالك والامام الشافعى اتباع فى مصر ، كما نبغ فيها كثير من فقهاء المالكية والشافعية (١) .

وقد حاول الفاطميون فى العصر الأخشيدى أن ينشروا المذهب الفاطمى الشيعى فى مصر ، فقد بعث الخليفة الفاطمى الثانى بالمغرب القائم بن عبيد الله المهدى برسالة الى الأخشيد يطلب فيها منه السماح بنشر الدعوة الفاطمية فى مصر ، ولكن الأخشيد لم يستجب لنداء الخليفة الفاطمى ، وماطل الرسول ، فقد رأى الاحتفاظ بصداقة كل من الخليفة الفاطمى فى المغرب والخليفة العباسى فى العراق ثم ساءت العلاقات بين الأخشيد والخلاقة العباسية فألغى الأخشيد الخطبة للخليفة العباسى ، ودعا للخليفة الفاطمى ، فكان هذا بمثابة الاعتراف بالنفوذ الفاطمى فى مصر ، ومما مهد لانتشار الدعوة الشيعية بين المصريين . ولكن العلاقات ساءت بين الأخشيد والخليفة الفاطمى المنصور بن القائم وفكر المنصور فى غزو مصر ، ولكنه انشغل بمشاكل الدولة الداخلية .

وقام المعز لدين الله الفاطمى ، قبل نجاح حملة جوهر بمحاولة لفتح مصر ولكن هذه الحملة وان أخفقت عسكريا الا أنها نجحت فى نشر المذهب الشيعى الفاطمى ، فقد أحسن كافور الأخشيدى استقبال الدعاة الفاطميين . ولكنه لم يسمح بانتشار المذهب الفاطمى على نطاق واسع فقد أراد كافور أن يفوز بصداقة الخليفة العباسى السنى ، والخليفة الفاطمى الشيعى . فقد ذكر المؤرخ أبو المحاسن (٢) : « وكان يهادن المعز صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء وتم له الأمر » .

---

(١) جمال سرور ، الدولة الفاطمية ص ٨٠ .

(٢) النجوم الزاهرة : ج ٤ ص ٦ .

وقبل قدوم جيش جوهر الصقلى ، كان المذهب الفاطمى الشيعى قد انتشر بين عدد غير قليل من المصريين ، وكان هؤلاء فى مقدمة من عاونوا الجيش الفاطمى فى فتح مصر . وكانت الاسكندرية أكثر مدن مصر التى انتشرت فيها الدعوة الشيعية . ولذا دخلها جوهر بدون مقاومة سنة ٣٥٨ هـ ، وتوسط بعض العلويين بين المصريين وجوهر ، حتى يمنحهم أمانا على أرواحهم وممتلكاتهم .

جاء فى عهد جوهر : « .. الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهى اقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم . وثباتكم على ما كان عليه سالف الأمة من الصحابة رضى الله عنه والتابعين بعدهم . وفقهاء الأنصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم . وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته . وأجرى أهل الذمة على ما كانوا عليه .. » (١) .

أصبح هذا العهد بمثابة التعاقد بين الخلفاء الفاطميين والمصريين ودستورا سار عليه كل من المعز وابنه العزيز . وجعل هذا العهد المصريين يرحبون بالحكم الفاطمى الجديد . ويذكر ابن خلكان (٢) أن المصريين كانوا يتوقعون فتح الفاطميين لمصر ، وقد كتبوا الى الخليفة المعز يطلبون اليه أن يبعث بجيش لفتح مصر . ولم يقاوم الجيش الفاطمى الا الجند الأخشيديون .

وفى الحقيقة لم يعارض المصريون فى تحويل طاعتهم من خليفة عباسى الى خليفة علوى ، لأنهم كانوا يدركون تماما أن انتقال السلطة من عباسى الى فاطمى أو من سنى الى شيعى ، ليس من شأنه أن يحدث أى تغيير فى حالتهم السياسية . بل قد يؤدى تغيير الحكم

(١) انظر نص عهد جوهر فى كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٦٧ — ٧٠ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٤٨ .

الى تحسين أحوال المصريين الداخلية ، فقد ساءت هذه الأحوال تحت حكم العباسيين الى درجة كبيرة . ولذا بعث عهد جوهر الآمال عند المصريين ، فقد أمنهم على أرواحهم وأموالهم ، وتعهد بحماية مصر من الأعداء ، واصلاح المساجد وتحسين العملة والسكة، والغاء السخرة ، ومنح المصريين سنيين وأهل ذمة ــ الحرية الدينية الكاملة فى القيام بالشعائر الدينية (١) .

كان المذهب الشيعى هو الأساس الذى قامت الدولة الفاطمية عليه . ولذا عمل الخلفاء الفاطميون على نشر مذهبهم بين المصريين تدعيما للدولة ، وحفظا لكيانها ، وتحقيقا لوحدتها وتماسكها . ولما كانت المذاهب الدينية لا تفرض بالقوة أو بحد السيف ، بل بالاقتناع والايمان . ولذا عمل الخلفاء الفاطميون على تشجيع المصريين واغرائهم على اعتناق مذهبهم الشيعى .

وتحقيقا لهذه السياسة ، ولى الخليفة العزيز بالله الشيعيين المناصب الكبرى وخاصة القضاء واتخذ من المساجد الكبرى فى مصر مراكز للدعاية للمذهب الشيعى . وهى مساجد عمرو بن العاص وأحمد بن طولون والجامع الأزهر . وحول العزيز الجامع الأزهر الى جامعة كبرى تقوم بتدريس الفقه الشيعى وألف وزير العزيز يعقوب ابن كلس الرسائل فى المذهب الاسماعيلى بتكليف من الخليفة . واختار العزيز جماعة من كبار المتفقهين فى مذهب الشيعة لنشر الدعوة الفاطمية يرأسها رجل يسمى (داعى الدعاة) ويعاونه اثنا عشر نقيبا ، ونواب فى سائر المدن المصرية وأصبح القضاة يصدرون أحكامهم وفق قوانين المذهب الشيعى .

وكانت الرغبة فى الوصول الى مناصب الدولة دافعا بفريق من المسلمين السنيين الى التحول الى المذهب الشيعى . كما دفعت تلك الرغبة أيضا بعض الذميين الى أعتناق الاسلام واتخاذ التشيع

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٤٨ .

مذهبا لهم . كما رأى بعض الموظفين السنيين أن من صالحهم للاحتفاظ بمناصبهم أن يتحـــولوا الى المذهب الشيعى . حتى لا يتعرضوا الى العزل أو النبذ ، والناس دائما على دين ومذهب ملوكهم .

وفى نفس الوقت عمل الخليفة العزيز بالله على ابراز الشعائر الشيعية مثل الأذان الشيعى الذى كان يضاف اليه عبارة (حى على خير العمل) كما أبرز الأعياد الشيعية مثل الاحتفال باليوم العاشر من شهر المحرم وهو اليوم الذى استشهد فيه الحسين بن على فى كربلاء فى عهد الخليفة الأموى يزيد بن معاوية . ومثل الاحتفال بعيد غدير خم (١٨ ذى الحجة) وهو اليوم الذى ترى الشيعة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بايع فيه على بن أبى طالب ، فقد كان الرسول راجعا من حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة ، وتوقف فى طريقه عند غدير خم ، فأخذ بيد على بن أبى طالب وقال للمسلمين : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا : بلى . فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه .

وفى العاشر من المحـــرم ، كان المصريون الشيعيون والمغاربة يسيرون فى مواكب فى طرقات القاهرة ينوحون ويبكون على الحسين ابن على ، ويلعنون قتلته .

ورأى الســـنيون أن المصريين ازاء اهتمام الشيعيين باظهار شعائرهم أن يتخذوا مناسبة دينية يحتفلون بها كما تحتفل الشيعية بعيد غديرخم فاحتفل السنيون باليوم الذى دخل فيه الرســـول صلى الله عليه وسلم غار ثور هو وأبو بكر الصديق . وقالوا أنه يوافق ٢٦ من ذى الحجة ، وأبرزوا الزينات والابتهاج وأوقدوا النيران . ورأت الحكومة الفاطمية فى عهدى المعز والعزيز ألا تمنع أهل السنة فى مصر من احياء هذا العيد حتى لا تثير غضبهم .

ومضى العزيز بالله على سياسة أبيه المعز فى نشر المذهب الفاطمى واتبع الطرق السلمية ، فقصر المناصب الكبرى على الشيعة . وأمر قضاته أن يتبعوا فى أحكامهم المذهب الشيعى ، وأقبل كثير من الموظفين على اعتناق هذا المذهب (١) ..

وأسند العزيز بالله أمر نشر الدعوة الفاطمية الشيعية الى موظف كبير يسمى (داعى الدعاة) وكان يلى قاضى القضاة فى الرتبة . ويرتدى نفس زيه ويتولى نشر الدعوة ويأخذ العهد على المريدين . اما مباشرة أو بواسطة نوابه فى مصر ، والاشراف على محاضرات الفقه الشيعى . وعرضها على الخليفة لتوقيعها واعتمادها ، وكثيرا ما كان داعى الدعاة يقوم بنفسه بالقاء هذه المحاضرات . وخصص الخليفة العزيز بالله له مكانا خاصا فى قصره . فكان يعقد المجالس ويلقى محاضراته . وكان يجلس على كرسى الدعوة فى الايوان الكبير فى القصر الشرقى وكان للنســـــاء مجلس خاص يسمى (مجلس الدعوة) يتعلمون فيه قواعد المذهب الشيعى .

وقد وصف المقريزى هذه المجالس وميز بينها حسب من كانوا يحضرونها فهناك مجلس لآل على بن أبى طالب ، ومجلس لوجوه القوم وكبار الموظفين ومجلس لعامة الناس أو الضيوف القادمين من الدول الأخرى ، ومجلس للنساء وكان يسمح للنساء أيضا بحضور المحاضرات فى الجامع الأزهر الذى أصبح فى عهد العزيز بالله جامعة علمية . واذا انتهى داعى الدعاة من القاء محاضراته يتقدم الحاضرون اليه فيقبلون يده ، ويمسح على رؤوسهم بالجزء الذى فيه توقيع الخليفة .

ولى العزيز بالله قاضى القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة الى المذهب الفاطمى فى القصر كما ولى أخاه الحسين الدعوة بالقاهرة ، ومثلما تولى أبوهما أبو حنيفة النعمان المغربى أمور الدعوة من قبل

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٦ .

فى بلاد المغرب . واشتد الزحام بالناس فى أحد هذه المجالس فى عهد العزيز حتى مات منهم أحد عشر رجلا .

وكان الخليفة العزيز بالله فى سياسته الشيعية معتدلا منصفا ، بينما حاد الخلفاء الذين تولوا بعده عن هذه السياسة المتسامحة . وغالوا فى نشر المذهب الفاطمى ، واشتدوا فى معاملة أهل السنة . وخاصة الخليفة الحاكم بأمر الله الذى أمر بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول (أبو بكر وعمر وعثمان) وغيرهم من الصحابة . فقد اعتبر هؤلاء مغتصبين لحق على بن أبى طالب فى الخلافة ، كما منع الحاكم بأمر الله أهل السنة من اقامة شعائرهم التى كانوا يقومون بها فى عهد أبيه الخليفة المتسامح العزيز بالله (١) .

ورغم اجتهاد الدولة الفاطميـــة فى نشر المذهب الشيعى بين أهالى أقطار الدولة الا أن جهودهم لم تكلل بالنجاح تماما وظل المذهب السنى محتفظا بقوته وانتشاره رغم اعتناق بعض المصريين المذهب الفاطمى . ويرجع السبب فى ذلك الى أن الفاطميين بعد انتهاء فتح مصر واستقرارهم بها ، تركوا الفسطاط حاضرة المصريين السنيين واتخذوا لهم حاضرة جديدة لتكون مقرا لأنصارهم ودعاة مذهبهم . كما شيدوا لهم مسجدا خاصا وهو الجامع الأزهر ، وسمحوا لأهل السنة باظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم .

ولذا أصبحت تعاليم مذاهب الامام مالك والامام الشافعى والامام أحمد بن حنبل تدرس فى مصر طوال عهدى الخليفتين المعز والعزيز بل كان الخليفتان يراعيان مذهب الامام مالك ، وكان من يسألهما الحكم به يجيبانه الى طلبه . أما مذهب الامام أبى حنيفة ، فلم يلق تأييدا من الفاطميين لأنه مذهب أعدائهم العباسيين وظهر فى عصر الخليفة العزيز بالله بعض علماء مذاهب أهل السنة وكانوا

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٦٦ .

يلقون دروسهم على جمهور الناس فى جامع عمرو بن العاص بمدينة الفسطاط (١) .

ولكن أهل السنة فى مصر لم يرضـــوا عن التشريعات التى أدخلها الفاطميون ، فقد رأوا أنها تتنافى مع ما ينص عليه القرآن الكريم والسنة النبوية ، فقد كان القانون الشيعى يجيز للبنت أن ترث كل ما تركه أبواها اذا لم يكن لها أخ أو أخت مع وجـــود ذوى العصب ، وهذا يخالف المذهب السنى الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف التركة .

اعتمد الخليفة العزيز بالله فى بلوغ أغراضـــه فى نشر المذهب الشيعى على الشعراء والأدباء والعلماء وكبار الموظفين ، فأصبحوا لسانا ناطقا بما يريد العزيز . كما اشتهر العزيز بالعطف عـــلى الفقراء ، واقامة الولائم الفاخرة لرعاياه فى المناسبات الدينية والأعياد العامة ، مما استمال به القلوب والنفوس فأحبت عامة الناس الخليفة العزيز ومذهبه الشيعى .

عصر رخاء وازدهار :

كان عصر الخليفة العزيز بالله هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية فقد بلغت فى عهده أوجها وذروتها . وأصبح لمصر فى عهده طابع خاص يميزها عن العهود التى سبقته وخاصة فى العصرين الطولونى والأخشيدى فيقول المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى (٢) : « ان العصر الفاطمى يعتبر بدءا لعصر جديد فى تاريخ البلاد ، اذ لم تتمتع مصر بنفوذ كامل مملوء بالحيوية ومؤسس على قواعد دينية منذ أيام الفراعنة قبل ذلك الحكم الفاطمى . أما الدولتان السابقتان الطولونية والأخشيدية ، فلم يكن لهما سلطان قوى ولا دينى فى البلاد ، اذ كان ظهورهما وبقاؤهما راجعا الى القـــدرة الحربية

---

(١) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ٨٥ .

(٢) تاريخ العرب ص ٨١٠ .

لمن أسسهما من رجال الحرب . كما كان راجعا أيضا الى الحالة السيئة التى كانت عليها الحكومة العباسية .

اتسعت رقعة الدولة الفاطمية فى عهد العزيز بالله ، وفاقت فى اتساعها وعظمتها ما كانت عليه فى عصر أبيه المعز لدين الله ، وساد الهدوء والسلام فى أرجاء الدولة ، وتمتع أهل الذمة بالتسامح والطمأنينة ، وظهرت أبهة الخلافة وعظمتها . وزاد ثراء الدولة الفاطمية الى درجة كبيرة حتى كانت خيول العزيز تكسى بالزرد المطعم بالذهب وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر . وأصبحت قصور الخليفة تحفا فنية رائعة ولم يشهد المسلمون مواكب جليلة مثل مواكب العزيز . وأثبت العزيز مقدرة كبيرة فى السياسة والادارة . وعمل على اصلاح دواوين الحكومة ، فمنع الرشوة كما اهتم بمرافق الدولة وضروب الاصلاح ، فشيد كثيرا من المبانى وحفر الترع وأنشأ الجسور ومرافىء السفن ، وظهرت نهضة ثقافية واقتصادية شاملة .

وقد رسم المقريزى صورا كثيرة للرخاء الذى تمتعت به مصر فى عهد الخليفة العزيز بالله . فأطنب فى وصف خزائن الفرش والأمتعة والجواهر والطعام والشراب . ووصف المقريزى قصر العزيز بالله وصفا يوضح ثراء الدولة الواسع فى عهده (١) . وامتد الثراء والترف الى سائر رجال الدولة فيحدثنا ابن خلكان عن حياة الترف التى عاشها يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله ، فقد كان اتخذ فى عصره مطابخ خاصة له ولضيوفه وأخرى لغلمانه وحاشيته وأتباعه . كما اتخذ بقصره طائفة من الحجاب يرتدون أزهى الملابس الحريرية ويتقلدون بالسيوف (٢) .

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٨٥ – ٣٨٦ .

(٢) وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٤٤١ .

ودخلت مصر فى عهدى الخليفتين المعز والعزيز فى دور جديد متميز له طابعه الحضارى الخاص . وفى ذلك يقول المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) انه بفضل التسامح السياسى لفاتح مصر وتجنب مبادىء الشيعة المتطرفة وافق الناس على النظام الجديد . على أن التغيير الحقيقى كان من الناحية السياسية . فلم تعد القاهرة عاصمة ولاية تابعة للخلافة القديمة ، أى الخلافة العباسية ، أو حتى ولاية مستقلة ضمنا متصلة بتلك الخلافة وانما كانت عاصمة دولة منافسة هى امبراطورية البحر المتوسط ، أى الامبراطورية الفاطمية . وقد كان للتنافس بين القاهرة وبغداد ، بين خلافة الشيعة الناشئة القوية وبين النظام الفاطمى ، والنظام السنى المتداعى ، أثر بعيد المدى فى مضمار السياسة والحضارة . وقد كان لقوة الفاطميين البحرية واتصالاتهم بدول أوروبا أثره فى ايجاد عنصر جديد فى السياسة الخارجية ، وتنشيط التجارة وتغيير حضارة مصر وسوريا من نواح كثيرة مختلفة .

تمتعت مصر وسائر أقاليم الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله بكثير من مظاهر الحضارة والرخاء والازدهار . وتتضح معالم الحضارة لنا فى فصول الكتاب التالية .

---

(١) سيرة القاهرة ص ١١٧ .

قاهرة المعز والعزيز

اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على القاهرة اسم القاهرة المعزية ، اذ كان قيام هذه الحاضرة الكبرى فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى . ولكننا نفضل أن نطلق على القاهرة اسم (قاهرة المعز والعزيز) فان كان المعز قد شيد القاهرة ، فقد أكمل العزيز تشييدها ، وعمل على تطورها وتقدمها وتوفير وسائل حضارتها ونهضتها . حتى أصبح من الاجحاف للعزيز أن نقصر فضل انشاء القاهرة على المعز وحده ، وخاصة ان المعز لم يحكم فى القاهرة سوى عامين ، بينما حكم العزيز ٢١ عاما (٣٦٥ – ٣٨٦ هـ) وكانت هذه الفترة هى العصر الذهبى للقاهرة وللدولة الفاطمية .

نشأة القاهرة :

أنشأ الفاطميون القاهرة ، فأصبحت رابعة عواصم مصر فى العصر العربى الاسلامى ، وفكر جوهر الصقلى فى انشاء حاضرة للدولة الفاطمية منذ اللحظة الأولى للفتح الفاطمى لمصر . فقد دخل جوهر الصقلى الفسطاط عاصمة مصر الاسلامية الأولى فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وفى نفس الليلة أرسى جوهر قواعد القاهرة .

بدأ جوهر بناء المدينة الجديدة بأن وضع أساس قصر الخليفة المعز وقد اختطت كل قبيلة من قبائل المغاربة البربر خطة سمتها باسمها حول هذا القصر . ثم أقام جوهر سورا ، وأطلق على المدينة

الجديدة اسم المنصورية نسبة الى المنصور والد المعز . ولكن المعز حين قدم الى مصر أطلق عليها اسم القاهرة (١) .

وحين قدم المعز الى مصر لم يعجبه موقع القاهرة ، وكان يرى أن تكون فى سفح جبل المقطم ، أو على شاطىء النيل ، فقال لجوهر : « لما فاتك عمارة القاهرة بالساحل ، كان ينبغى عمارتها بهذا الجبل » (٢) .

ولكن الحقيقة أن جوهر الصقلى قد أصاب فى اختيار موقع القاهرة ، لأن الجند يستطيعون أن يصدوا الحملات التى تأتى عن طريق النيل بخروجهم من أبواب السور الغربى ، كباب سعادة ، وباب الفرج ، وباب القنطرة وغيرها . وبذلك يقفون فى وجه العدو اذا حاول الاستيلاء على الفسطاط وكان موقف جوهر من الناحية الاستراتيجية أقوى من موقف الروم حين هاجمهم عمرو بن العاص فى قرية أم دنين الواقعة على النيل . كما أن جوهرا اتخذ ترعة الخليج مكانا للدفاع عن حاضرة ولايته ، كما فعل أباطرة الدولة البيزنطية الذين اعتمدوا فى الدفاع عن مدينة القسطنطينية من الناحية البرية الشمالية على قناة القرن الذهبى . واذا علمنا أن عمرو بن العاص لم يستطع أن يتجه الى حصن بابليون ، الا بعد أن اقضى على معاقل الروم ، فى موقعة الجبل الأحمر شرقى العباسية ، أدركنا بعد نظر جوهر بتحصين مدينة القاهرة من الناحية الشمالية لأن ذلك ينطوى على الدفاع عن القاهرة بل عن الفسطاط والعسكر أيضا (٣) .

تقع القاهرة شمالى الفسطاط ، وكانت وقت انشائها تمتد من منارة جامع الحاكم ، الذى أنشأه العزيز الى باب زويلة . وكانت حدودها الشرقية هى حدود القاهرة الحالية . أما الجهة الغربية

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٧٣ .
(٢) المعز لدين الله ص ٢١٦ .
(٣) المعز لدين الله ص ٢١٦ .

فلم تتجاوز خليج أمير المؤمنين ، وتحد شمالا بباب النصر ، وجنوبا بباب زويلة وشرقا بباب الرقبة والباب المحروق (الدراسة الآن) وغربا بباب السعادة وباب الفتوح وباب الخوخة . وكانت القاهرة فى عهدى المعز والعزيز تشمل أحياء جامع الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى والغورية وباب الخلق . وكانت هذه المدينة محاطة بسور من آجر كبير الحجم . وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ، ويتصل بمدينة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح . وكان يوصل الى الفضاء الواقع فى الشمال . والى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر .

اختلف المؤرخون فى سبب تسمية مدينة القاهرة بهذا الاسم . فقال ابن دقماق : انها سميت كذلك لأن أساسها شق على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر ، وهو كوكب يقال له (القاهر) ويقول المقريزى ان القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد بناء حاضرة جديدة يقيم فيها الجند الفاطميون . وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس فاختاروا طالعا لوضع الأساس ، وطالعا لوضع السور ، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وطلبوا من العمال أن يضعوا الأساس حين يسمعون صلصلة الأجراس وبات العمال يترقبون ، واذ بغراب يقع على حبل فتتحرك الأجراس كلها وظن العمال أن المنجمين قد حركوا الحبل ، فبدأوا فى وضع الأساس وكان المريخ حينئذ فى الطالع ، وهو قاهر الفلك ، فسموا المدينة الجديدة القاهرة .

وقيل أيضا انها سميت القاهرة لأنها تقهر كل من خرج على أمرائها وقد تكون تسميتها مشتقة من العبارة التى قالها الخليفة المعز لدين الله لقائده جوهر عند خروجه لفتح مصر وهى « ولتدخلن فى خرابات ابن طولون وتبنى مدينة تقهر الدنيا » .

تطور القاهرة فى عهد العزيز بالله :

تطورت القاهـــرة فى عهد العزيز بالله تطورا كبيرا ، فلم تكن القاهرة فى عهد الخليفة المعز لدين الله سوى مكان يقيم فيه الخليفة وحاشيته وجيشه ، فيذكر المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) انه لم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة التى بنيت حول المدينة أن يبنى داخلها عاصمة للقطر المصرى ، وانما كان الغرض منها أن تكون مقرا للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون اليها فلم يكن يسمح بالدخول لأحد من الأبواب بدون اذن . بل أكثر من ذلك ان سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجلون حينما يصلون الى الأسوار ، ثم يصلون الى القصر فى حراسة بعض الجند كما كان الحال فى النظام البيزنطى .

ثم اتسعت القاهرة فى عهد العزيز ، وأصبحت عاصمة للدولة الفاطمية الكبرى فتطورت مبانيها وشوارعها وأسواقها وسكنتها جماعات مختلفة من المصريين وخاصة أرباب المهن والحرف والتجار ونزح اليها كثير من أهل الفسطاط ، وكان سكان القاهرة فى عهد المعز من المغاربة فقط . كما كان لتحويل العزيز الجامع الأزهر الى جامعة أثره فى جذب آلاف الطلاب من جميع أرجاء العالم الاسلامى .

وكانت هذه المدينة محاطة بسور من آجر كبير الحجم ، شاهد المقريزى بقاياه سنة ٨٠٢ هـ (١٤٠٠ م) وقد تخلل هذا السور فضاء متسع أطلق عليه فيما بعد (بين القصرين) وكان يسع عشرة آلاف من الجند ، وما زال بعضه يعرف اليوم بسوق النحاسين . والى الشرق منه يقـــع قصر الخليفة ويعرف جزء منه الآن بخان الخليلى ، وآخر بمسجد الحسين وأطلقت هـذه التسمية (بين القصرين) بعد أن بنى الخليفة العزيز بالله قصرا أصغر من القصر الذى بناه جوهر لمولاه المعز على جانبه الغربى ، عند مبدأ هذه الحديقة التى أنشأها كافور الأخشيدى .

---

(١) سيرة القاهرة ص ١٣٢ .

وقد اختط طريق عام يخترق وسط القاهرة من باب زويلة جنوبا ويتصل بمدينـــة الفسطاط مارا فيما بين القصرين حتى باب الفتوح . وكان يوصل الى الفضاء الواقع فى الشمال . والى الجنوب الشرقى من قصر الخليفة يقع الجامع الأزهر الذى شرع جوهر فى بنائه (فى ٢٤ جمـادى سنة ٣٥٩ هـ) بعد أن وضـع أساس العاصمة الجديدة . وقد تم بناء السور المحيط بالقـاهرة سنة ٣٥٩ هـ . والى الجنوب والشرق منه كانت تقع مدينـــة الفسطاط التى ظلت مركز الحركة التجارية وموطن الأهالى والى الغرب تقع المقس وكانت تمتد الى النيل وكانت ميناء القاهرة (١) .

وصف على مبارك باشا القاهرة القديمة فذكر أن طول كل جانب من جوانب المدينة التى أسسها جوهر كان يبلغ ألفا ومائتى متر . ومساجد هذا المكان ٣٠٤ فدانا (الفدان ٤٢٠٠ متر مربع) وكان القصر يشغل منه مساحة مقدارها سبعون فدانا . وكانت حديقة كافور تشغل خمسة وثلاثين فدانا ، كما يشغل المكان المخصص لاستعراض الجنـــد ٣٥ فدانا أخرى . والباقى قدره مائتا فدان لسكنى العساكر (٢) .

وضع الخليفة المعز بنفسه تصميم قصره . وزاد الخليفة العزيز بالله فى هذا القصر فأنشأ البهو الذهبى ، والايوان العظيم ، كما أنشأ القصر الغربى الصغير ، والمبنى الذى كان يستريح فيه فى حديقة كافور .

وكان القصر الغربى الصغير الذى بناه العزيز فى غرب القصر الشرقى أصغر مساحة ، وكان يقع مكان سوق النحاسين وجامع قلاوون . وأنشأ العزيز كثيرا من المنشئات العامة بالقاهرة كالفنادق والحمامات . وكانت كلها ملكا خاصا للخليفة . وكانت الدكاكين

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٠ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١ ص ٤ ــ ٢٢ .

فى القاهرة كذلك ملكا خاصا له . يتراوح ايجار كل منها ما بين دينارين وعشرة دنانير فى الشهر . وكانت الدور محكمة البناء مبنية بالحجر لا باللبن ، يفصل معظمها عن بعض حدائق بهيجة .

وتحدث ابن خلكان عن كثير من منشآت العزيز بالله ، فذكر أنه أنشأ الجامع المعروف بجامع الحاكم الذى أسسه سنة ٣٨٠ هـ وقصر الذهب ، وجامع القرافة العظيم . وقصورا أخرى فى عين شمس وقصر البحر الذى يقول عنه ابن خلكان أنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب .

أما جامع القرافة فقد أنشأته السيدة تغريد زوجة المعز فى عهد العزيز سنة ٣٦٦ هـ ، وبذلت أموالا كثيرة فى سبيل انشائه وقام بتصميم المسجد الحسن بن عبد العزيز الفارسى المحتسب وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة ، وكان يحيط بهذا الجامع فى الغرب حديقة غناء وصهريج كبير للماء . واختط هذا المسجد على شكل مربع الزوايا . وفى جوانبه أروقة كالأزهر وكانت نقوشه مرآة تعكس تقدم الفنون الفاطمية . أما بابه فكان ذا مصطبة كبيرة تحت المنارة العالية ، وكان مصفحا بالحديد . وكانت المقصورة يدخل اليها من أربعة عشر بابا مربعا ، أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام فى ثلاثة صفوف . وكانت ألوان الأبواب زرقاء وحمراء وخضراء وكانت أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ذات ألوان زاهية (١) .

حتى اذا انتهى الحسن بن عبد العزيز المحتسب من بناء مسجد القرافة كلفته السيدة تغريد بأن يشيد لها قصر القرافة فى سنة ٣٦٦ هـ وكان يتصل بهذا القصر بستان رائع وحمام وبئر . ووصف المقريزى هذا القصر الفخم بأنه كان يسر الناظرين ، تتردد عليه السيدة تغريد والخليفة العزيز فى أوقات متقاربة طلبا

---

(١) المقريزى : خطط جـ ١ ص ٤١٥ .

للراحة . وكان بهذا القصر قنطرة مقـــامة على قبو يستظل به المسافرون من الشمس .

أما جامع الحاكم ، فقد أسسه الخليفة العزيز فى شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ ، وصلى فيه صلاة الجمعة سنة ٣٨١ هـ ثم توفى العزيز دون أن يتم هذا الجامع ، فقام ابنه وخليفته الحاكم بأمر الله باتمامه (١) .

تطوير الجامع الأزهر فى عهد العزيز بالله :

قبل الفتح الفاطمى ، كان فى مصر ثلاثة مساجد جامعة هى : جامع عمرو بن العاص الذى أنشىء بعد الفتح الاسلامى سنة ٣١ هـ ، وجامع العسكر الذى بناه الوالى العباسى الفضـــل بن صـــالح سنة ١٦٩ هـ ، وجامع أحمد بن طولون الذى شيده صاحبه بعد استقلاله عن الدولة العباسية سنة ٢٦٣ هـ .

وبعد أن انتهى جوهر الصقلى من فتح مصر ، وتأسيس مدينة القاهرة رأى ألا يفاجىء السنيين فى مساجدهم بشعائر المذهب الشيعى حتى لا يثير مشاعرهم ضد الحكم الفاطمى الجديد ولذا رأى أن ينشىء جامعا جديدا يكون مركزا للدعوة الفاطمية الشيعية ورمزا للسيادة الفاطمية ، فبدأ بناء الجامع الأزهر فى يوم السبت ١٤ من رمضان سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) وتم البناء فى عامين تقريبا وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى ٧ من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢) .

وأطلق جوهر ، فى بادىء الأمر ، على الجامع الجـــديد اسم (جامع القاهرة) نسبة الى الحاضرة الجديدة ، ويرى البعض أن الفاطميين سموه بالأزهر تخليدا لذكرى جدتهم (فاطمة الزهراء) بنت الرسول صلى الله عليه وسلم . ويرى فريق ثالث أن الجامع

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٢٧٧ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٤ .

الأزهر قد سمى بهذا الاسم لما سيكون له من أثر كبير فى ازدهار العلوم به .

وكان الجامع الأزهر يتوسط العاصمة الجديدة القاهرة ، ويشتمل على مكان مسقوف للصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحنا ، عدا الملحقات التى تتبع المساجد عادة من منارات وميضأة وغيرها . أما المقصورة التى بناها جوهر ، ففيها ستة وسبعون عمودا من الرخام الأبيض اللون فى صفوف متوازية . أما صحن الجامع فهو مكان متسع غير مسقوف مرصوف بالحجر يقيمون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين ويحيط بالمسجد من جهاته الأربع بوائك مقامة على أعمدة من الرخام على مثال جامع عمرو بن العاص ، وزينت جدرانه بالآيات القرآنية المنقوشة بالخط الكوفى الجميل .

وأنشأ جوهر بالمقصورة محرابا يسمى الآن القبلة القديمة . وكان للجامع منبر واحد مصنوع من الخشب المخروط الجميل الصنع ، وقد نقل فيما بعد الى جامع الحاكم الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله . وأنشىء بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقاتى ومهنته التنبيه على أوقات الصلوات وكان يعرف الأوقات بالنظر فى المزولة التى لا تزال قائمة الى اليوم على أحد جدران صحن الأزهر . وكانت مساجد القاهرة تتبع فى الآذان أصوت المؤذنين فى الأزهر .

تطور الجامع الأزهر فى عهد الخليفة العزيز بالله تطورا كبيرا ، فقد أقام جوهر هذا الجامع ليكون كغيره من المساجد لاقامة الشعائر الدينية ، ولكن العزيز بالله طوره حتى أصبح جامعة يتلقى فيها الطلاب العلم ورواده من كل أرجاء العالم مختلف العلوم والفنون . ففى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر الى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية .

وعمل الخليفة العزيز بالله على جذب طلاب العلم من كل مكان فى العالم الاسلامى بما كان يقدمه اليهم من مسكن ومأكل ووسائل الحياة والراحة وأقام مساكن للطلاب تحيط بالمقصورة والصحن من الجهات الأربع كما حبس عليه كثيرا من الأوقاف غير الهدايا القيمة من وقت لآخر .

وكان الخليفة العزيز بالله أول من بنى جوار الأزهر دارا لجماعة من الفقهاء عدتهم خمسة وثلاثون ، كانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ويقرأون القرآن الكريم الى صلاة العصر ، وأغدق الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس عليهم الصلات والأرزاق (١) .

واهتم العزيز بالاحتفال باقامة الصلوات بالجامع الأزهر فى أيام الجمعة والأعياد ، وكان كثيرا ما يؤم بنفسه الناس فى الصلاة ويخطب فيهم كما شهد الجامع كثيرا من الاحتفالات الدينية طوال عهد العزيز بالله .

وفى أوائل عهد العزيز بالله جلس الوزير يعقوب بن كلس بالجامع الأزهر وقرأ على الناس رسالة ألفها فى الفقه الشيعى على المذهب الاسماعيلى تسمى الرسالة الوزيرية ، تضمنت ما سمعه فى ذلك من المعز لدين الله وولده العزيز . وكان يفد الى سماعه الفقهاء والقضاة وأكابر رجال الدولة . وصار ابن كلس يعقد مجالسه العلمية تارة بالجامع الأزهر وطورا بداره ، يقرأ فيها مصنفاته على الناس(٢) .

علق المؤرخ (ستانلى لينبول) (٣) على تطوير العزيز بالله للجامع الأزهر حتى أصبح جامعة كبرى فقال : وفى عام ٩٨٨ م أصبح العلماء يؤمون الجامع الأزهر من كل حدب وصوب ، ومنذ ذلك الوقت صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الاسلامية كافة يجتمع فيه عدد

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣٦ .
(٢) جمال سرور : الدولة الفاطمية ص ١٧٤ .
(٣) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢١ .

وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامى من ساحل الذهب حتى ولايات الملايو ، ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدى الشيوخ دروسا فى مختلف فروع الثقافة العربية مثل القرآن والحديث والتفسير والفقه والقواعد وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما الى ذلك . ويتعلم هؤلاء الطلبة بالمجان ، ولم يبخل أهل العلم والأدب فى القـــاهرة بعلمهم وثقافتهم عــلى طلابهم . وكان الطلاب الأجانب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدرا من الطعام ينفق عليهم من بيت المال الموقوف .

مواكب العزيز فى طرقات القاهرة :

كان الخليفة العزيز بالله يميل الى الترف والعظمة والأبهة . وانعكست هذه الصفات على حياته العامة والخاصة ، فى قصوره ومبانيه ، وفى بلاطه وحاشيته وفى مواكبه العامة فى طرقات القاهرة .

وصف القلقشندى (١) موكب الخليفة وصفا شائقا فقد كان الموكب يتقدم وحوله الأساتذة والأمراء المطوقون ورجالات الدولة ركبانا ومشاة على حسب مراتبهم وحامل الدواة ، وكانت هــذه الدواة مصنوعة من الذهب ومحلاة بالمرجان ، تلف فى منـــديل من الحرير الأبيض ، ويحملها أحد رجال الخليفة . وحول الخليفة حامل السيف ، وحامل الرمح ، وهو رمح محلى بالذهب واللؤلؤ ، وحامل الدرقة المنسوبة الى حمزة عم الرسول عليه الصـــلاة والسلام ، وهى درقة كبيرة محلاة بالذهب والحرير وعليها أمير من أكابر الأمراء فى الموكب . ومن وراء الخليفة يسير العساكر وبلغ عدد الفرسان أكثر من ثلاثة آلاف فارس .

وكانت توضع فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى الموكب قطعة ياقوت أحمر على شكل هلال تسمى (الحافر) زنتها أحد عشر

---

(١) صبح الأعشى : جـ ٣ ص ٤٧٢ – ٤٧٣ .

مثقالا . تحاط على خرقة وبدائرها قضيب زمرد ، وكانت تحمل عند رأس الفرس مذبتان عظيمتان كالنخلتين ملويتين .

وكان للخليفة الفاطمى الرايات البيضاء ، وعليها أهلة من ذهب فى كل منها صور سبع من الديباج الأحمر ، ومنسوج على الرايات بعض الآيات القرآنية والعبارات الدينية مثل (نصر من الله وفتح قريب) .

واذا بدأ سير الموكب ضرب رجل ببوق معوج الرأس من الذهب يقال له (الغريبة) وهو مخالف لصوت باقى الأبواق ، فتضرب البوقات الأخرى فى الموكب ، وتنشر الألوية ، وأعلاها لواء محمد على رمحين طولين ملبسين بأنابيب من ذهب وبأعلاها رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين ، ويخرجان لخروج المظلة الى أميرين معدين لحملهما .

أما المظلة فكانت قبة على هيئة خيمة على رأس عمود وكانت لها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة ، وكان حاملها من أكبر الأمراء . وكان لونها يشبه دواما لون ثياب الخليفة ، فمثلا فى صلاة العيد الأضحى تكون مظلة الخليفة حمراء تبعا لثوبه الأحمر الموشح وبيضاء فى صلاة عيد الفطر . لارتدائه البياض فى هذه المناسبة . وكانت تتخذ المظلة من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجوهر .

يسير الخليفة فى الموكب وصاحب المظلة على يساره مجتهدا ألا يزول ظلها عن الخليفة ، وفى المواكب المختصرة كان يخرج الخليفة بدون مظلة وكانت الطبول تقرع هى والصنوج طوال سير الموكب ، وتحمل النقارات على عشرين بغلا (١) .

وكان موكب صلاة الجمعة من أبرز مواكب الخليفة العزيز بالله فكان يركب فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان الى جوامع الحاكم

---

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٧٥ .

والأزهر وعمرو على التوالى لصلاة الجمعة ، وجامع الحاكم هو الذى أنشأه العزيز . وكان صاحب بيت المال فى صباح كل من هذه الأيام الثلاثة يشرف بنفسه على تأثيث المسجد الذى يصلى الخليفة الجمعة فيه . فكان يوضع فى المقصورة ثلاث طنافس بعضها فوق بعض ، ويوضع فوق الجميع الحصيرة وكان ينصب على جانبى المنبر ستران ، يكتب على الأيمن البسملة والفاتحة وسورة الجمعة ، وعلى الآخر البسملة والفاتحة وسورة المنافقين (١) .

وقبل وصـــول الخليفة بقليل كان قاضى القضاة يقف وبيده مبخرة ، فيبخر المنبر والقبة التى كان يقف الخليفة تحتها وقت القاء الخطبة ، أما الخطبة فقد كان يصوغها أحد كتاب البلاط فى ديوان الانشاء . وكان الخليفة يرتدى فى هذا اليوم ثوبا من الحرير الأبيض ويتعمم بعمامة من الحرير الأبيض الرقيق ، ويحمل قضيب الملك بيده ويحف به عدد كبير من حرسه الخاص ومن الجنـود الأخرى والأشراف ، ويتبع هؤلاء جمهور من الناس .

وكان الخليفة يركب بين قرع الطبول ورنين الصنوج وقراءة القرآن الكريم حتى يصل الى قاعة الخطابة ، وهى قاعة استقباله الخاصة ، ويحرسها قائد القواد وكبير الأمناء ونخبة من حراس الخليفة ويظل فى هذه القاعة حتى ينتهى الأذان .

وحينئذ يدخل قاضى القضاة ويقول : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله » . فيخرج الخليفة وحوله الوزير وجماعة من الحـــرس المدججين بالسلاح فينتشرون بين قاعة الخطابة والمنبر ـ أما الخليفة فيستمر حتى يأخذ مكانه تحت قبة المنبر . ويقف الوزير على باب المنبر ووجهه للخليفة فاذا أومأ اليه ، صعد فقبل يدى مولاه ورجليه ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥١١ .

وزر السترين عليه ، وبذلك يكون المنبر والقبة كالهودج ، ثم ينزل الوزير وينتظر على باب المنبر ..

وبعد الأذان يقدم قاضى القضاء وصاحب بيت المال ، فيتقدم الأول ويحل الستر ويبخر المكان ، ثم يغادران القاعة ويقبلان الدرج عند نزولهما . وكانت الخطبة التى يلقيها الخليفة قصيرة .

نقل المقريزى عن المسيحى الذى حضر صلاة الجمعة فى الجامع الأزهر فى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) فى عهد الخليفة العزيز بالله ، فقال انه اتخذ موقفه خلف العزيز وذكر العزيز بعد أن تلا آية قرآنية نفسه وقومه بعبارة موجزة ثم قال : « رب اوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » . ودعا بعد ذلك لوالده وجده ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم ولعلى بن أبى طالب رضى الله عنه وللخلفاء أسلافه ثم دعا العزيز لنفسه أخيرا فقال : « اللهم أنا عبدك وابن عبدك لا أملك لنفسى خيرا ولا نفعا (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء . ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) » (١) .

ويختم الخليفة عـــادة خطبته بالدعاء للوزير وبنصر الجيش وخذلان الكفار والمشركين . فاذا ما فرغ من خطبته قال : اذكروا الله يذكركم . ثم يصعد الوزير فيحل السترين ويظل هو وقاضى القضاة على الباب ويقوم كبار الموظفين العسكريين والمدنيين بحراسة المقصورة .

وبعد انتهاء الصلاة يخلو الجامع من الناس ويغادر الخليفة المسجد يحيط به الوزير عن يمينه وقاضى القضاة وداعى الدعاة عن يساره . وحرسه الخاص من خلفه ويعود بموكبه الى قصره على الصورة التى شهدناها عند قدومه الى الجامع .

---

(١) سورة الأعراف ٧ : ١٨٨ .

وفى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان كانت تزدان الدور والحوانيت والأسواق التى يمر بها الخليفة فى طريقه الى الجامع كما كان يصطف كثير من الناس على جانبى الطريق (١) .

ومن أبهى مواكب الخليفة العزيز بالله موكبه فى الاحتفال بجبر الخليج أو وفاء النيل . فكان الخليفة يخرج يحيط به آلاف من الفرسان يمتطون الخيول المطهمة الملجمة ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة . ويلى هؤلاء صفوف من الجمال عليها هوادج مزركشة تقودها طائفة من جند الخليفة .

ويسير الجند فى صفوف منتظمة فصيلة تلو فصيلة ، ويتبعهم عشرون ألفا من البربر من أبناء قبيلة كتامة وخمسة عشر ألفا من المغاربة ، وعشرون ألفا من المصامدة وهم أيضا من بربر شمال أفريقية . ويتبعهم عشرة آلاف من الأتراك ومثلهم من الفرس ويطلق عليهم اسم المشرقيين ثم خمسة عشر ألفا من بدو الحجاز وثلاثون ألفا من السودان ، ثم يتبعهم الموظفون على اختلاف مراتبهم ، ثم الشعراء والعلماء والأمراء .

وفى آخر هذا الموكب يسير الخليفة العزيز بالله ، وحوله حرسه الخاص ، والى جانبه أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة ويحف به الخصيان يطلقون البخور على جانبى الطريق . حتى اذا وصل الى الفسطاط المقام عند فم الخليج سجد له الناس احتراما واجلالا .

وفى هذا السرادق يوضع للخليفة حشية عظيمة يجلس عليها ويوضع للوزير كرسى ويبدأ الاحتفال بتلاوة القرآن الكريم ثم ينشد الشعراء قصائدهم . ثم يغادر الخليفة السرادق بصحبته الوزير

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٢٨٠ ــ ٢٨١ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٦٨ .

الى منظرة السكرة التى كانت تطل على الخليج ويبقى رجال الدولة فى السرادق ويقذف الخليفة المزراق فى سد النيل . وينطلق الناس يعملون فى هـــذا السد بمعاولهم فينساب الماء ويهرع الناس الى الزوارق فرحين مسرورين .

جولة فى قاهرة العزيز :

ولتسمح لنا أيها القارىء أن نصحبك الى القاهرة فى عهـــد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ولنبدأ بأسوار القاهرة فقد أحيطت القاهرة بسور كبير ضم الخطط التى تكونت منها القاهرة التى كانت بمثابة حصن يتحصن فيه الفاطميون . وأصبح اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار على حين كان يعرف الجزء الواقع بخارجها بظاهر القاهرة وهو خطط وأحياء جديدة بدأ انشاؤها فى عصر العزيز بالله . وكان سور المدينة الغربى بعيد عن الخليج بنحو ثلاثين مترا .

أما أبواب القاهرة فهى أربعة : بابا زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح . ويتكون بابا زويلة من بابين متجاورين أحــدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ولهذا سمى باب القوس . وقد مر منه الخليفة المعز لدين الله عند قدومه من بلاد المغرب فكان الناس يمرون منه تبركا . أما الباب الثانى فقد تشاءم منه الناس وهجروه . ويذكر القلقشندى أن جوهر الصقلى سمى باب زويلة بهذا الاسم نسبة الى قبيلة زويلة احدى قبائل البربر البارزة التى قدمت معه من بلاد المغرب .

وهذا هو القصر الشرقى الكبير الذى بناه فاتح مصر جوهر الصقلى ليقيم فيه الخليفة المعز لدين الله وهو القصر الذى عاش فيه الخليفة العزيز بالله عامين كولى للعهد وعاش به فى أول عهد خلافته حتى بنى القصر الغربى . وحول القصر الشرقى دور كثيرة للجند والموظفين والأتباع . وللقصر أبواب كثيرة ، وهى باب الذهب

وتعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى الأعياد ، وباب البحر وباب الريح وباب الزمرد وباب العيد . وأمام القصر رحبة متسعة يقف فيها الجند فى يومى العيدين وتعرف برحبة العيد وبجواره دار الضيافة وتسمى بدار سعيد السعداء وباب قصر الشوك وباب الديلم ، وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويقابله الجامع الأزهر الى الجنوب الشرقى من القصر وباب الزعفران ، وباب الزهومة أى الباب الذى يشتم منه رائحة اللحم ، وبين هذا الباب والجامع الأزهر تقع خزائن القصر (١) .

أما القصر الغربى الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله فيبدأ من حيث يوجد المارستان الى حارة برجوان . وكان له جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكنه يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربى والحائط الغربى فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على الخليج .

وهذا هو المقس الذى بدأ الخليفة المعز ببنائه ونال اهتماما كبيرا من ابنه العزيز فقد بنى المعز حوضا فى المقس لكى ترسو فيه السفن أكثر انخفاضا فى النهر من الأحواض السابقة فى الروضة ومصر ، وبالقرب من موقع الأزبكية الحالية . ولقد ظلت المقس ترسانة القاهرة وميناءها حتى ظهرت بولاق حينما غير النيل مجراه . وقد رأى ناصر خسرو فى عام ١٠٤٧ م بعض سفن المعز راسية هناك فى المقس وكان طول الواحدة يبلغ ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ أقدام (٢) .

واذا كانت القاهرة هى العاصمة السياسية ومركز الادارة والحرب فقد كانت الفسطاط سوق القاهرة ومركز النشاط الاقتصادى وكانت دورها تتألف من خمس طبقات وتبدو من بعيد

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ج ٤ ص ٥٦ ـ ٥٧ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٣١ .

(٢) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢٩ .

كأنها المنائر ويسكن الدار الوحيدة نحو مائتى نفس وكانت أسواقها فى غاية النظافة والنظام وتغص بالدكاكين العامرة بمختلف السلع . ومن أشهر أسواقها القناديل . وكانت ترد الى الفسطاط أنواع كثيرة من التجارة العالمية .

العزيز بالله فى الأعياد والمواسم بالقاهرة :

استن الخليفة المعز لدين الله سنة الأحتفال بالأعياد والمواسم وكان يريد بهذه الاحتفالات جذب رعايا الدولة الفاطمية اليها ولذا شارك المعز الأقباط المصريين فى الاحتفال بعيد (خميس العهد) وعيد (يوم الغطاس) وعيد الميلاد وغيرها . وقد نهج أبناؤه وأحفاده نهجه فى ذلك . كما أهتم المعز بأعياد مصر القومية مثل عيد جبر الخليج . فقد سن المعز لخلفائه من بعده سنة التودد الى المصريين فى ذلك اليوم فكان الفاطميون ينفقون الأموال الكثيرة للاحتفال به فتعطل دواوين الحكومة وتحتفل به الدولة احتفالا رسميا (١) .

وسار الخليفة العزيز بالله على سنة أبيه المعز فكان يحتفل بمختلف الأعياد والمواسم فى صورة اجتماعية بهيجة فيقيم الولائم الفخمة والأسمطة فى قصور الخلافة وفى المساجد . وشهدت قاعة الذهب فى القصر الشرقى الكبير الأسمطة الحافلة طوال شهر رمضان وأيام العيدين . وكان يدعى اليها قاضى القضاه وكبار الموظفين والقواد . وكان الخليفة العزيز ينفق الأموال الطائلة مما يدل على عظم ثراء الدولة الفاطمية فى عهده .

اهتم الخليفة العزيز بالله بالاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية والاجتماعية . ومن هذه الاحتفالات الاحتفال بأول العام الهجرى فيخرج الخليفة فى موكب رائع يصحبه وزيره ، ويلتف حوله حرسه الخاص ، وكانوا يسمون صبيان الموكب . فيمر الموكب بطرق القاهرة الكبرى حتى الجامع العتيق أى جامع عمرو بن العاص .

---

(١) المعز لدين الله ص ٢٨٦ .

وعند وصول العزيز بالله الى الجامع يستقبله الخطيب وهو واقف على مصطبته وبيده مصحف ينسب خطه الى علـى بن أبى طالب . فيتناول الخليفة المصحف من الخطيب ويقبله عـدة مرات ويأمر صاحب الكيس بأن يعطيه ثلاثين دينارا فيأخذ الخطيب والمشرف على الجامع نصفها . والباقى يقتسمه المؤذنون . وبعد الصلاة يعود الخليفة الى قصره وفى طريق عودته يعطى رئيس كل مسجد يمر به دينارا .

واهتم الخليفة العزيز بالله بالاحتفال بشـهر رمضان المعظم وبعيدى الفطر والأضحى ومولد الرسول صلى الله عليه وسلم . فكانت تقام الأسمطة فى قصور الخلافة وتوزع الانعامات والهبات وتزدان القاهرة بالزينات والأنوار .

ومن أعياد الفاطميين الاحتفال بمولد على بن أبى طالب ومولد ابنيه الحسن والحسـين رضى الله عنهم ، ومولد فاطمة عليها السلام ، ومولد الخليفة ، وليلة أول رجب وليلة نصف رجب وليلة أول شعبان وليلة نصف شعبان وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وجبر الخليج ويوم النوروز ويوم الغطاس ويوم الميلاد وخميس العهـد .

احتفل الخليفة العزيز بالله وغيره من الخلفاء بعيد غديرخم . وقد بدأ الاحتفال بهذا العيد فى عهد أبيه المعز وفى ذلك يقـول ابن زولاق : « فى يوم ثمانية عشرة من ذى الحجة سـنة اثنين وثلثمائة وهو عيد الغدير تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة ومن تبعهم للدعاء لأنه يوم عيد لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عهد الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب فيه واستخلفه فأعجب المعز ذلك من فعلهم . وكان هذا أول ما عمل بمصر » (١) .

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٣٨٨ .

ووصف المسبحى الاحتفال بعيد الغدير : « اجتمع الناس بجامع القاهرة (أى الأزهر) والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعـــا عظيما أقاموا الى الظهر ثم خرجوا الى القصر فخرجت اليهم الجائزة . وبذلك كان اهتمام المعز بهذا اليوم كبيرا حتى أنه كان يخرج الى قنطرة المقس ويعرض الأسطول ويعوذه ويباركه ويدعو له » .

وكان العزيز بالله يخرج فى عيد غديرخم مع كبار رجال الدولة الى الايوان الكبير فى قصر الخلافة حيث يسبقه الوزير . ويجلس الخليفة فى الشباك ويتجه القاضى الى كرسى الدعوة ويشبه المنبر فيه تسع درجات فيأخذ مجلسه أمـــام الشهود والأمراء والأجناد والشيعة وغيرهم . ويجلس الوزير وحاشيته على مقربة من كرسى الدعوة ثم يتلو قاضى القضاة قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب يوم غديرخم فاذا فرغ قاضى القضاة نزل عن الكرسى وصلى بالحاضرين ركعتين . ثم ينهض الوزير ويسير الى الشباك ليقدم فروض الولاء من جديد للخليفة ثم ينفض الحاضرون بعد تبادل التهانى . ثم يتوجه الوزير لذبح الأضاحى على النحو الذى كان متبعا فى عيد النحر . ثم يقام سماط فخم كسماط أول عيدى الفطر والأضحى وتوزع الأطعمة والكسى وتعمل الدولة على تزويج الأيامى (١) .

ومن الأعياد الفاطمية فى عهد العزيز بالله الاحتفال بيوم عاشوراء فى العاشر من شهر المحرم فكان المسلمون يصومون فى هذا اليوم ويظل الشيعيون فى بكاء وحزن طوال اليوم وتتعطل الأسواق ويخرج المنشدون ويسير الناس الى جامع عمرو بن العاص ويخرجون الى الطرقات بعد الصلاة وهم ينوحون ويبكون . ويحتجب الخليفة فى هذا اليوم ويرتدى كبار رجال الدولة ملابس الحداد وتفرش دهاليز قصر الخليفة بالحصر بدلا من البسط . ويقدم سماط الحزن

---

(١) خطط المقريزى ج ١ ص ٣٩٠ تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٣ .

ويتألف من خبز الشعير والعدس والملحات والمخللات والجبن والألبان وعسل النحل ويحضر الخليفة هذا السماط ويجلس على كرسى من الجريد بدون مخدة متلثما هو وجميع رجال الحاشية وينحرون الابل والبقر والغنم ويوزعون لحومها على الفقراء .

ومن الاحتفالات الفاطمية ، الاحتفال بليالى الوقود وهى الليالى التى تسبق أول ومنتصف شهرى رجب وشعبان . وكان الشيعيون يصومون فى هذه الأيام ويحتفلون بها احتفالهم بشهر رمضان وتضاء المساجد بأنوار ساطعة ويسير موكب عظيم يتقدمه قاضى القضاة نائبا عن الخليفة ممتطيا جوادا يحيط به ثلاثة من رجال الخليفة وعشرة من الحجاب والقراء ومؤذنو المساجد المختلفة ، يحمدون الله ويدعون للخليفة . وكان الشهود يمتطون الجياد أيضا وبأيديهم الشموع المضاءة ويمضى الموكب فى شوارع القاهرة الرئيسية حتى يصل الى باب الزمرد وهناك يكون الخليفة جالسا فى منظرته التى تسطع بالأنوار . وبعد توالى الخطباء تفتح نوافذ المنظرة حتى يرى الشعب وجه الخليفة وسط هذه الأنوار الساطعة ويصيح أحد رجال الخليفة : أمير المؤمنين يرد عليكم السلام . ويغادر الموكب قصر الخليفة الى قصر الوزير حيث تلقى الخطب تكريما له (١) .

واهتمت حكومة العزيز بالله بتنظيم هذه الاحتفالات فكان حكام القاهرة ومصر يعينون بعض رجال الشرطة والخفر لحفظ النظام وكان على الواليين أن يصحبا قاضى القضاة فى موكبه ويطيعا أمره حتى يأمر به . وكانت الأسواق تسطع بالأنوار وتكثر فيها الحلوى سدا لحاجة المشترين (٢) .

استن الخليفة المعز لدين الله سنة اقامة الولائم فى الأعياد والمواسم وسار العزيز بالله على سنة أبيه وكانت هذه الولائم تقام

---

(١) القريزى : خطط ج ١ ص ٤٦٦ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠١ .

(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٥٩ .

فى بعض المساجد أو فى القصر أو فى دار الوزير . ففى القصر كانت تقام فى قاعة الذهب وتستمر الولائم طوال شهر رمضان وفى أيام العيدين .

وفى عيد الأضحى كان الخليفة العزيز بالله بعد أن ينتهى من صلاة العيد يركب الى المذبح حيث يكون الوزير وقاضى القضاة وغيرهم من رجالات الدولة فى انتظار وصوله ويقوم الخليفة بيده بذبح بعض الحيوانات ويتكرر ذلك فى اليومين الثانى والثالث من أيام عيد الأضحى .

وفى عيد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر الخليفة العزيز بالله بصنع أكثر من عشرين قنطارا من الحلوى توضع على ثلثمائة خوان وتوزع فى الجامع الأزهـــر . وفى الاحتفال بجبر الخليج (وفاء النيل) يقام سماط عظيم فى سرادق كبير على شاطىء النيل قرب منظرة السكرة التى كان الخليفة يجلس فيها ويدعو الخليفة الناس الى هذا السماط .

وصف المقريزى (١) احتفال الخليفة العزيز بالله بالعيد فقال : « وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد وبين يديه الجنائب والقبـــاب والديباج المحلى والعسكر فى زيه : من الأتراك والديلم والعزيزية والأخشيدية والكافورية وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب . وعـــلى الجنائب السروج الذهب بالجواهر والسروج بالعنبر وبين يديه الفيلة وعليها الرجالة بالسلاح وخرج بالمظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف » .

---

(١) خطط المقريزى جـ ١ ص ٣٨٨ .

حكومة العزيز بالله

تميزت حكومة العزيز بالله بأنها كانت حكومة رشيدة عادلة منظمة ، بل كانت أفضل حكومات الخلفاء الفاطميين جميعا . وان كان أبوه المعز لدين الله قد وضع أسس وقواعد السياسة والادارة الا أنه لم يحكم فى مصر سوى عامين ، ولذا فقد أكمل العزيز بالله النظم الحكومية وتبلورت وتطورت فى عهده حتى ظهرت فى صورتها الكاملة الناضجة .

وضع الخليفة المعز لدين الله أسس السياسة التى سار عليه ابنه وخلفه العزيز بالله فقد حدد واجبات الخليفة بحيث تدور كلها حول اصلاح أمر الرعية وحمايتهم من أعدائهم فقال : « للناس شغل بدنياهم ، وما يتلذذون به منها ، وشغلنا اقامة أودهم وصلاح أحوالهم ، والنظر فيما يعود عليهم ، ويحمى حماهم ، ويدفع عن بيضتهم ، ويحقن دماءهم ، ويحصن حريمهم وأموالهم ، ويكف أيدى المتطاولين ، بذلك نقطع ليلنا ونهارنا .. والله المستعان على ما قلدناه من أمورهم وافترضه علينا من القيام بأسبابهم ونرغب اليه فى اصلاحهم وهدايتهم الى ما فيه حظهم ونجاتهم فى دنياهم وأخراهم » (١) .

نظام الخلافة فى عهد العزيز بالله :

كان الخليفة العزيز بالله باعتباره خليفة علويا فاطميا تولى الامامة بعد أبيه بنص منه يجمع فى يده كل السلطات . فكان المهيمن على جميع أعمال الدولة ، ويعين الولاة فى الأقاليم ، ويرسم لهم

---

(١) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ١٤٣ ـ ١٤٤ .

طريق الحكم ويراقب سياستهم . كما كان العزيز بالله القائد الأعلى للجيش وقد خرج بنفسه على رأس جيشه لقتال القرامطة وأفتكين التركى فى بلاد الشام . وكثيرا ما كان العزيز بالله يجلس للنظر فى المظالم ، وينصف المظلومين ولم يسمح لوزرائه بالاستبداد بالسلطة فتولى الوزير منصب الوساطة وظل الخليفة العزيز مصدر السلطات .

والخلافة الفاطمية هى الخلافة الشيعية الكبرى الوحيدة فى الاسلام ، تأسست فى تونس فى بلاد المغرب (٢٩٧ هـ ـ ٩٠٩ م) لتنافس الزعامة الدينية للعالم الاسلامى التى كان يمثلها العباسيون السنيون فى بغداد . ثم انتقلت الخلافة الفاطمية الى مصر فى عهد الخليفة الفاطمى الرابع المعز لدين الله سنة ٣٦٢ هـ .

وكان قيام الخلافة الفاطمية نتيجة لذلك الصراع العنيف بين السنيين والشيعيين فقد ظل العلويون يعتقدون أنهم أحق بزعامة المسلمين ، لأنهم أولاد على بن أبى طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة . ولذا فالعلويون هم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة دون الخلفاء الأمويين والعباسيين ، ويرون ان الخلافة ليست مسألة عامة يناط أمرها الى عامة الناس فيختاون امامهم بل الامامة بالنص ، وقد أوصى الرسول بتولى على بن أبى طالب الامامة بعده . وترى الشيعة أن أحفاد على بن أبى طالب قد ورثوا مرتبته فى رئاسة الدولة وولاية الحكم فيها وفى العلوم والصفات الروحية التى اختص بها ، وكل امام وصى لسلفه الذى عينه باقراره الصريح . وتعد الشيعة كل دستور غير هذا للخلافة اغتصابا وقهرا . وترى الشيعة أيضا أن الأئمة معصومون عن الخطأ ، ويضفون عليهم صفات التقديس (١) .

---

(١) أنظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢١٠ .

وظل العلويون يناضلون فى سبيل الزعامة والخلافة ، بالسيف تارة وبالدهاء تارة أخرى ، حتى توجت جهودهم بقيام الخلافة الفاطمية فى المغرب ، التى أصبحت تنافس الخلافة العباسية فى المشرق . وتحدث (آدم متز) (١) عن الصراع بين العباسيين والفاطميين ، فذكر أن الخليفة الفاطمى وقف من الخليفة العباسى موقف المنافس العنيد ، وأن نفوذه انتشر فى كثير من البلاد ، ودعى له على المنابر فى المغرب ومصر ، وفى بلاد اليمن والشام .

قلدت الدولة الفاطمية الدولة العباسية فى نظام حكومتها وسائر شئونها ، الا فيما يتعلق منها بالدين ، فانهم أيدوا كل ما يوافق مذهب الشيعة من ايثار العلويين وتقديمهم والعمل بأقوال أئمتهم . فألف يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله كتابا يتضمن الفقه على ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله ، وبوبه على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم صحيح البخارى ، وهو يشتمل على فقه الطائفة الاسماعيلية . وقد بذلت الدولة الفاطمية جهدها فى نشر هذا الفقه بين المسلمين ، حتى كان الوزير ابن كلس يجلس بنفسه لقراءة هذا الكتاب على الطلبة وبين يديه خواص الناس وعوامهم وسائر الفقهاء والقضاة والأدباء ، وجعله مرجع القضاء فى الفتوى ، وأفتى الناس به ودرسوه فى جامع عمرو . وعمل الخلفاء على ترغيب الناس فى حفظه بالبذل والعطاء ، وأجلسوا أناسا فى قصر الخلافة لقراءة علوم أهل البيت على الناس ، لأنه بانتشار ذلك المذهب تتأيد تلك الدولة لارتباط السياسة بالدين (٢) .

قامت الخلافة الفاطمية على أساس فكرة تقديس الامام وعصمته ولذا خلع الشيعيون على خلفائهم من صفات التقديس مالم يوصف به خلفاء بنى العباس . ولكى يحيط الخلفاء الفاطميون أنفسهم بهالة

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ج ١ ص ٤ .
(٢) جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٤ ص ٢٣٢ .

من التقديس ، عمدوا الى تأسيس المدارس الخاصة لتعليم عقائد المذهب الذى يقوم على تقديس الأئمة . وكان من اثر هذه الجهود أن راجت فكرة تقديس الأئمة فى كثير من أرجاء العالم الاسلامى كمصر واليمن وفارس والهند ، بل انتشرت بين الأمويين السنيين فى الأندلس (١) .

لقيت نظرية الحق الملكى المقدس التى كانت سائدة فى بلاد الفرس فى عهد الأكاسرة الساسانيين ، والتى أخذها عنهم الخلفاء العباسيون فيما بعد ، قبولا عند الخلفاء الفاطميين ، وأصبح الامام فى نظر الناس ، ظل الله فى الأرض ، كما أصبح شخصا مقدسا ، حتى لقد تعرض الناس للموت اذا أظهروا سخطا أو تذمرا ، أو قاوموا أوامر الخليفة ونواهيه ، لأنها صادرة من الله عز وجل الذى أملاها على الامام المعلم ، الذى تلقى علمه من الله عن طريق الوحى .

وأسبغ المعز لدين الله عند قدومه الى مصر على الامامة لونا من القدسية ، فنجده ينوه بأقواله وأمثاله وكتبه ومقدرة امامته الروحية ، وكونها امامة الدنيا والدين معا ، فأصبح ينحنى أمامه ، هو وغيره ممن أتى بعده من الخلفاء الفاطميين ، الداخل عليهم والخارج من حضرتهم ، ويقبل الناس الأرض بين أيديهم ، وتلثم الرعية أيديهم وأرجلهم ، واذا اقترب أحد منهم قبل أرديتهم ، وهو شرف لا يناله الا وجوه القوم والدولة .

وأحيط شخص الخليفة الفاطمى بالرهبة والقداسة ، وتيقن للشعب أن لخليفتهم قدرة خارقة للعادة ، لأن الله اصطفاه من شجرة النبوة الباسقة ليحكم بين الناس بروح من عنده ، فعليهم السمع والطاعة له ، لأن حكمه هو الحق والعدل الملهم له من الله سبحانه وتعالى ، فللامام عند الفاطميين صلة روحية بالله من جنس التى للأنبياء والرسل (٢) .

---

(١) دوزى : المسلمون فى اسبانيا ص ٤٠٦ .
(٢) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٥٨ .

ويلاحظ المؤرخ (براون) أن نظرية الحق الملكى المقدس لم تكن فى دولة من الدول أثبت وأكثر ذيوعا منها فى فارس فى عهد آل ساسان . غير أن هذه النظرية كانت بمصر فى زمن أعرق فى القدم من عصر آل ساسان ، فى عهد الفراعنة الذين ادعوا لأنفسهم كل صفات الله ، وأوضح مثل لذلك هو فرعون موسى عليه السلام .

أضفى الخليفة المعز لدين الله على نفسه كثيرا من صفات التقديس ، تظهر فى رسالته التى وجهها الى الحسن الأعصم القرمطى ، فقال : « انا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدائعه المنشئات ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات . لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر . وانا لكما قال الله سبحانه وتعالى (ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ، ان الله بكل شىء عليم) »

وتميزت الخلافة الفاطمية بالعظمة والأبهة التى كانت تتمثل فى الاحتفال بصلاة الجمعة ، وفى توديع الحملات الحربية ، والاحتفال بوفاء النيل ، وبعيدى الفطر والأضحى ، وفى جلوس الخليفة بقاعة الذهب ، وكانت الشيعة تركع عند رؤية الخليفة ، وتعتبر تقبيل ردائه شرفا عظيما .

تلقب الخلفاء الفاطميون بألقاب كثيرة منها : الخليفة الفاطمى أو العلوى ، وأمير المؤمنين . ومن الألقاب المحببة الى الاسماعيلية لقب امام وصاحب الزمان وسلطان والشريف القاضى ، كما يظهر من مخاطبة قاضى القضاة للخليفة فى صلاة الجمعة « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته » . وكان السنيون يطلقون على الخلفاء الفاطميين (العبيديين) نسبة الى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين ، كما كان يطلق عليهم

(العلويون) نسبة الى على بن أبى طالب ، و (الفاطميون) نسبة الى فاطمة الزهراء . كما يطلق عليهم أيضا (السلاطين) (١) .

وكان رعايا الخليفة الفاطمى يخاطبونه بكثير من الأسماء مثل : سيدنا ، ومولانا ، وسيف الاسلام ، وناصر الامام ، وكافل قضاة المسلمين ، وهادى دعاة المؤمنين ، وكاشف الغمة ، وغياث الأنام ، وغير ذلك من الألقاب .

وحرص الخلفاء الفاطميون على أن يقرنوا اسم الله سبحانه وتعالى بأسمائهم ، مثل المعز لدين الله ، واسمه الأصلى (معد أبو تميم) ، ومثل العزيز بالله واسمه الأصلى (نزار أبو منصور) .

كان يصحب اعتلاء الخليفة الفاطمى العرش عدة مظاهر غاية فى الأبهة والعظمة فيجتمع الأمراء والقضاة ورجال الدين وكبار رجال الدولة . فاذا استوى الخليفة على العرش أصبح من الصعب ايجاد حد فاصل بين ما يفصل فيه من الأمور الدينية ، أو المسائل السياسية والادارية ، لأنه كان يجمع فى يده السلطتين الروحية والزمنية ، ولذا كانت وظائفه متعددة : فهو رئيس الدولة الأعلى وذاته مصونة لا تمس ، ورئيس الحكومة وزعيم الأمراء والقائد الأعلى للجيش ، وله النفوذ الفعلى فى تصريف أمور الدولة والتعرض لشئونها ، فله الولاية والعزل واقطاع الاقطاعات وغير ذلك .

أما أهم مظاهر سيادة الخليفة فكان ذكر اسمه فى الخطبة على المنابر ونقشها على السكة . وكان ذكر اسمه فى الخطبة هو المظهر الذى يدل على أنه كان له اعتبار روحى وكيان دينى ، وهو الذى يحث على الجهاد فى سبيل الله والدين . وهو المهيمن على شئون موظفى دولته . وله أن يتولى القضاء بنفسه وأن ينظر فى المظالم .

ويصف مؤرخ عربى الحكومة الفاطمية بأنها حكومة بيروقراطية ، فقد كان الخليفة يعتمد فى ادارة شئون الدولة على كبار الموظفين

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٦٧ .

الاداريين ، ويمنح كلا منهم حرية التصرف فى الأمور التى يباشرها بعد مراقبة لهم ومحاسبتهم أمامه على أعمالهم (١) .

ويرى المؤرخ (آدم متز) (٢) نفس الرأى ، وهو يشيد بسياسة الخلفاء الفاطميين الحازمة واستقرار الأوضاع السياسية والادارية واتباع نظام اللامركزية ، ثم يقول : ومن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة الى المعز لدين الله مباشرة وتخطى من دونه ، فمنع الخليفة من ذلك ، وأعاد الكتاب الى الوالى من غير أن تفض أختامه .

نظام ولاية العهد :

سار الفاطميون على نهج الخلفاء الأمويين والعباسيين فى تولية أبنائهم العهد . فكان الخليفة الفاطمى اذا أدرك قرب وفاته عهد بالخلافة الى أحد أبنائه ، ثم تتجدد هذه البيعة بعد وفاته . وكان الفاطميون ينظرون الى الخليفة الفاطمى باعتباره اماما يرث أباه عن طريق التعيين بالنص وانه لابد أن يعين الخليفة أو الامام ولى عهده قبل وفاته حتى لا يخلو العالم من امام .

سن الخليفة الفاطمى القائم فى نظام ولاية العهد سنة طيبة سار عليها خلفاؤه من بعده ، ففرض على كل من الخلفاء الفاطميين أن يعين من يخلفه قبل أن يدفن سلفه بيده ، وأن يشهد على هذا التعيين أخلص الناس اليه . وكان تعيين الامام بالنص أمر مسلم به عند الاسماعيلية . فقد قال الخليفة الفاطمى المنصور لابنه المعز حين عهد اليه : « والله ما أنا آثرتك بما آثرتك به ، بل الله آثرك واختصك وأعطاك واجتباك . . » (٣) .

---

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٦٦ .
(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٢٤ .
(٣) النعمان : المجالس والمسايرات جـ ١ ص ١٥٢ .

ويقضى نظام الوراثة فى المذهب الاسماعيلى أن تنتقل الامامة من الأب الى الابن عن طريق التعيين ، ولم يتبع الفاطميون ما اتبعه الأمويون والعباسيون من تولية العهد لأكثر من واحد .

وكان لولاية العهد ميزاتها اذا كان ولى العهد رشيدا ناضجا كفؤا لتولى هذه المهمة الخطيرة ، وكان الخلفاء الفاطميون الأوائل من أعظم الخلفاء المسلمين فقد كان القائم بن عبيد الله المهدى قبل أن يتولى الخلافة شجاعا ملما بالسياسة وفنون الحرب ، وقاد الجيوش لمحاولة فتح مصر فى حياة أبيه ، وأخمد الثورات التى قامت ضد الدولة الفاطمية . كما كان العزيز بالله ساعد أبيه المعز الأيمن قبل أن يتولى العزيز الخلافة .

ويمتدح (آدم متز) (١) نظام ولاية العهد فى العصر الفاطمى فيقول : نادى الفاطميون بأن الامامة والأفضلية صفة خاصة تنتقل من الوالد الى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونة التنازع على عرش الخلافة ، ويضاف الى هذا هدوء السياسة الحازمة ، وطمأنينتها فى عهدهم .

وزراء العزيز بالله :

لم تظهر الوزارة فى مصر بمعناها الحقيقى ومظاهرها الرسمية ، أى أن يكون للوزير رتبة خاصة ، ولوظيفته قواعد معينة ، الا فى عهد الأخشيديين (٣٢٣ ــ ٣٥٨ هـ) حيث وليها الوزير جعفر ابن الفرات . وعند فتح مصر ، لم يطلق جوهر على ابن الفرات لقب (الوزير) وقال : « ما كان وزير خليفة » ، فقد كانت هذه الوظيفة غير مألوفة عند الفاطميين فى أول عهد دولتهم ، فقد كان الخلفاء الفاطميون المهدى والقائم والمنصور يقومون بشئون الدولة بأنفسهم دون الاعتماد على وزراء ، وان استعانوا بعدد من كبار الموظفين مثل قاضى القضاء والحاجب وغيرهم .

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ ج ١ ص ٢٤ .

ويذكر المقريزى أن جوهر الصقلى لم يعترف بابن الفرات وزيرا، بل ولى أحد رجاله أمر مراقبة ابن الفرات مراقبة دقيقة فيكون دائما موضع نظره ، ولكن جوهرا فى نفس الوقت اضطر لأن يبقى لابن الفرات ما كان يتمتع به من سلطان حتى لا يغضب المصريين السنين . ورفض ابن الفرات أن يستقبل الخليفة المعز لدين الله عند قدومه الى مصر ، لولا أن ألح عليه كثير من وجوه المصريين السنيين حتى لا يثير غضب المعز وقد تم له فتح مصر . وعرض المعز على ابن الفرات أن يستمر فى القيام بأعمال الوزارة ، ولكنه اعتذر ، وبذلك انتهت وزارة ابن الفرات بقدوم المعز الى مصر (١) .

ولذا كان الخليفة العزيز بالله أول من اتخذ الوزراء بتعيينه يعقوب بن كلس وزيرا سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٨ م) . فقد كان الخلفاء الفاطميون الأوائل يعتمدون على حجابهم مثلما كان متبعا فى الدولة الأموية فى بلاد الأندلس . حتى اذا اتسعت الدولة الفاطمية ، وأراد الخلفاء الفاطميون بمصر أن يضفوا عليها مظاهر العظمة والابهة ، اتبعوا نظام الوزارة المعروف فى الدولة العباسية .

وكان يعقوب بن كلس يهوديا فى أول حياته ، نشأ فى مدينة بغداد ، ثم رحل مع أبيه الى بلاد الشام ، ثم الى مصر فى سنة ٣٣١ هـ . ونال ثقة كافور الأخشيدى حاكم مصر فى عصر الدولة الأخشيدية ، فعينه فى ديوانه الخاص . وازداد نفوذه حتى ان « كافور » أصدر أوامره الى رؤساء الدواوين الحكومية الا يصرفوا شيئا من المال الا بتوقيع ابن كلس .

وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ أعلن ابن كلس اعتناقه الاسلام ، وصلى فى الجامع ، فزاد تقريب كافور له ، وحافظ ابن كلس على أداء الصلاة وتلاوة القرآن الكريم ، ورتب لنفسه شيخا من أهل العلم المتفقهين فى الدراسات الدينية ، كما درس كتب النحو (٢) .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٤٠ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ، ص ٤٦١ .

حتى اذا مات كافور ، بدأ العداء بين ابن الفرات وابن كلس ، وألقاه ابن الفرات فى السجن ، حتى شفع فيه كثير من الناس ، وبذل ابن كلس مبلغا كبيرا من المال مقابل الافراج عنه . ثم رحل ابن كلس متخفيا الى بلاد المغرب . وفى طريقه اليها ، التقى بجيش جوهر الصقلى القادم لفتح مصر ، فصحبه وعاد ثانية الى القطر المصرى . حتى اذا قدم الخليفة المعز لدين الله الى القاهرة ، دخل ابن كلس فى خدمته وتولى بعض الشئون الادارية والمالية .

ولما تولى العزيز بالله الخلافة ، برز يعقوب بن كلس ، وأصبح الناس يطلقون عليه اسم (الوزير الأجل) ، وأصبح جميع مكاتبات الدولة تحمل اسمه ، فكان يبدؤها بعبارة : « من يعقوب بن يوسف وزير أمير المؤمنين الى فلان » . وأصبح ابن كلس أول وزراء الدول الاسلامية الذين كانوا من أهل الذمة واعتنقوا الاسلام . كما يعتبر أيضا أول أرباب الأقلام الذين تولوا الوزارة .

امتدح المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى الوزير يعقوب ابن كلس فقال : أما ادارة الامبراطورية الفاطمية فى الداخل فالفضل فى انشائها راجع الى يعقوب بن كلس الذى كان وزيرا للعزيز ، وكانت ادارته الماهرة هى التى بنيت عليها قواعد الرخاء الاقتصادى الذى شهده وادى النيل فى عهد الفاطميين الأول (١) .

وكان ابن كلس عالما ، يهتم بالعلم وبتشجيع العلماء ، وكانت مكتبته الخاصة تنافس مكتبة الخليفة العزيز فى عدد كتبها . كما كان انسانا ، فقد أنشأ فى قصره مستشفى به عدد كاف من الأطباء يفحصون المرضى ويقدمون لهم الدواء بدون مقابل .

وحرص ابن كلس على الجلوس للمظالم فى كل يوم بعد صلاة الصبح ، فيتقدم له الجميع على السواء بمظالمهم فينظر فيها . واتخذ فى قصره عدة دواوين ، بعضها لشئون الجيش أو المسائل

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٣ .

المالية أو سجلات الدولة ، وتولى كل دواوين هيئة ادارية من عديد من الموظفين .

تعرض ابن كلس لمحنة ، فقد غضب عليه الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) ، فعزله من الوزارة ، واعتقله فى القصر ثمانية أشهر ، ثم أطلق سراحه ، وأعاده الى منصبه مرة أخرى ، ووهبه الخليفة خمسمائة غلام ، وألفا من الموالى المغاربة (١) .

وسكن ابن كلس قصرا فخما يضاهى قصر الخليفة العزيز فى عظمته وأبهته ، واتخذ فيه مطابخ خاصة له ولضيوفه العديدين ، وأخرى لغلمانه وحاشيته . وكان يمد فى كل يوم سماطا كبيرا للعلماء والضيوف وكبار الموظفين والأتباع والحجاب (٢) . كما اهتم ابن كلس بتحصين قصره ، فأصبح يحرسه عدد كبير من الجند ، وأمدهم بالسلاح والعدد والمؤن . وانتشرت حول القصر دور أتباعه وحاشيته . وقلد ابن كلس الخليفة العزيز بالله فى اتخاذ الحجاب الذين ارتدوا أزهى الملابس الحريرية ، وتقلدوا السيوف المطعمة بالجواهر ، كما احتذى الخليفة فى اقامة الولائم فى قصره للخاصة ، كما أقام ولائم أخرى لعامة الناس وفقرائهم . وكان فى قصر ابن كلس ثمان غرف معدة دائما لاستقبال الضيوف الأجانب . واتخذ كمولاه العزيز عددا من الضباط منح كلا منهم رتبة القائد ، فكانوا يصحبونه فى غدواته وروحاته ، ومع هؤلاء القواد جماعة من الموالى أطلق على كل منهم لقب القائد أيضا .

ومن المهام والواجبات التى عهد بها الخليفة العزيز الى وزيره ابن كلس ، الشئون المالية ، وموازنة الايرادات والمصروفات ، وفرض الضرائب أو اسقاطها ، والاشراف على دواوين الحكومة . وكان ابن كلس يلازم العزيز فى الحفلات الرسمية أو فى الصلاة ، وأخذ

---

(١) المقريزى : خطط جـ ٢ ص ٦ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٤١ .

البيعة لولى العهد . ونال ابن كلس ثقة العزيز وتقديره ، وكثيرا ما خلع العزيز عليه ثيابه ، وأمر الناس أن تترجل له ، وتوالت هدايا العزيز على وزيره ، من الملابس والأطعمة . وأظهر ابن كلس تفوقا واضحا في ادارة وحكم الدولة الفاطمية ، مما أدى الى انتشار الرخاء والعمران ، ورقى الحضارة .

مرض يعقوب بن كلس مرضه الأخير ، وركب الخليفة العزيز بالله ليعوده فى قصره ، وقال له : « وددت انك تباع فأبتاعك بملكى وولدى » . ولما توفى ابن كلس فى الخامس من ذى الحجة سنة ٣٨٠هـ (٩٩٠ م) اشترك الخليفة فى جنازته بغير مظلة ، وصلى عليه ، وقام بدفنه في قبره بيده ، وكان دفنه في قبة بدار الخليفة فى مقبرة كان الخليفة قد بناها لنفسه ، وعطل دواوين الحكومة ١٨ يوما .

وبعد وفاة ابن كلس ، عهد الخليفة العزيز بالمسائل المالية الى عيسى بن نسطورس ، ثم رفعه الى منصب الوساطة .

ومن المعروف أن نظام الوزارة ينقسم الى نوعين ، تحدث عنهما الماوردى (١) باسهاب ، وهما : وزارة تنفيذ ، وزارة تفويض . وكانت الوزارة في العصر الفاطمى الأول وزارة تنفيذ ، بينما كانت فى العصر الثانى وزارة تفويض . فقد استأثر الخلفاء الفاطميون الأولون ، مثل المعز والعزيز ، بجميع السلطات ، اذ كانوا على نصيب كبير من القوة والجدارة . وكان الوزراء ينظرون فى العصر الأول فى شئون الجيش والادارة والاقتصاد والضرائب ، وتولية رؤساء الدواوين ، كما كانوا يجلسون للمظالم .

أما فى العصر الفاطمى الثانى ، فقد أصبحت الوزارة منذ عهد الخليفة المستنصر حفيد العزيز وزارة تفويض ، فاستبد الوزراء بالسلطة دون الخلفاء الفاطميين ، وبدأ بدر الجمالى عصر الوزراء

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦ وما بعدها .

العظام ، فقد جاء فى مرسوم تولية بدر الجمالي الوزارة : « وقد قلدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره ، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ... » (١) واتخذ هؤلاء الوزراء العظام عدة ألقاب منها : أمير الجيوش ، وكافل قضاة المسلمين ، وهادى دعـاة المؤمنين ، ثم اتخذوا لقب الملك (٢) .

ضعف شأن الوزارة بعد وفاة يعقوب بن كلس ، وتحولت الى ما يسمى (الوساطة) خشية ازدياد نفوذ الوزراء . ففى أوائل عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى خلف أباه العزيز ، عـزل عيسى ابن نسطورس ، وتقلد الحسن بن عمار زعيم الكتاميين المغاربة الوساطة وتلقب أمين الدولة (٣) .

النظم الادارية والحكومية فى عصر العزيز بالله :

اهتم الخليفة العزيز بالله بالحكومة الفاطمية ، ولم يترك شيئا كثيرا من النفوذ لرجال دولته ومساعديه ، حتى لا يستبدوا بالأمور دونه ، كما فعل البويهيون مع العباسيين ، كما انه لم يهمل شئون دولته ، وينغمس فى العبث والمجون ، كغيره من الخلفاء ، بل كان يتولى كل شئون الدولة بنفسه ، ويستعين بأقـدر الموظفين وأخلصهم ، فى الشئون الحكومية والادارية .

واهتم العزيز بالله أيضا بالنظام الادارى ، واتبع سنة أبيه المعز فى اختيـار أمرائه وعماله من بين أكفأ الرجال وأخلصهم للدولة ومذهبها . ولم يتبع مبـدأ الوراثة فى تعيين الموظفين ، بل كانت الكفاية والاخلاص فى مقدمة أسس اختيارهم .

كانت الدولة الفاطمية فى عصر الخليفة العزيز بالله مقسمة من الناحية الادارية الى ثلاثة أقطار كبرى وهى : البلاد المصرية

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٤٤ .

(٢) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢١٢ .

(٣) جمال سرور ، الدولة الفاطمية ص ١٤٢ .

وفيها القاهرة مركز الخلافة الفاطمية ، ثم بلاد الشام وفلسطين وينوب عن الخليفة نواب يحكمونها ، ثم أفريقية ويحكمها ولاة باسم الخليفة . أما بلاد الحجاز والحرمان فكانت تابعة للخليفة الفاطمى اسما ، فكان يدعى للخليفة من فوق منابرها ، لكنها كانت مستقلة اداريا .

أما القطر المصرى فى عهد العزيز بالله ، فكان مقسما الى أقسام ادارية حتى يتيسر حكمها ، فكان كل عمل (اقليم) ينقسم الى كور (مثل المراكز اليوم) ، وكل كورة تشتمل على عدة قرى ، ولكل قرية زمام أطيان خاص بها ، وعلى كل عمل أو اقليم رئيس (يشبه المحافظ اليوم) ، وعلى كل كورة نائب رئيس (مثل المأمور اليوم) ، وعلى كل قرية زعيم (مثل العمدة اليوم) .

وكان والى الاقليم يشرف على اقليمه ويعمل على استتباب الأمن به ، فيحافظ على أموال الناس وأرواحهم ، ويبعث الطمأنينة والنظام فيه ، وينفذ ما يصدره الخليفه وأعوانه اليه من آوامر ، وكان عليه أن يقيم فى عاصمة الكورة . فكانت الجيزة عاصمة الجيزة ، والبهنسا عاصمة البهنساوية ، والفيوم عاصمة الفيومية ، ودمنهور عاصمة البحيرة ، والمحلة عاصمة الغربية ، وأبيار عاصمة كورة جزيرة بنى نصر (١) .

وانقسمت مصر فى عصر الخليفة العزيز بالله الى أربع ولايات أو أقاليم كبيرة هى : ولاية قوص ويحكم متوليها جميع بلاد الصعيد، وولاية الشرقية وتشمل على وجه التقريب الأراضى الواقعة شرقى فرع دمياط ، وولاية الغربية وتشمل جميع البلاد الواقعة بين فرعى رشيد ودمياط من الشمال الى الجنوب . أما الولاية الرابعة فهى ولاية الاسكندرية ، ويضاف اليها البحيرة . وقد منحت الحكومة الفاطمية كل وال من ولاة هـذه الأقاليم الأربعة الحرية فى تعيين

---

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ١٢١ .

العمال على المدن والنواحى والقرى الداخلة فى نطاق ولايته ، كما أجازت لهم العناية بمرافق اقليمهم دون الرجوع اليها (١) .

تحدث القلقشندى (٢) عن أبرز الولاة الفاطميين فقال : ان والى القاهرة كان فى مقدمتهم ومرتبه خمســـون دينارا ، ويليه والى الفسطاط وله نفس المرتب ، وكان لكل منهما مكان خاص فى موكب الخليفة . وكان والى قوص يحكم جميع الصعيد ، أما والى الشرقية فكانت ولايته دون ولاية قوص ، ويحكم أعمال بلبيس وقليــوب وأشمون . وكان والى الغربية أقل مرتبة من والى الشرقية ويحكم أعمال المحلة ومنوف وأبيار . أما والى الاسكندرية فكان أقل مرتبة من والى الغربية ويحكى أعمال البحيرة كلها .

وعلى الرغم من أن الخليفة العزيز بالله قد منح ولاته وأمراءه شيئا من الحـــرية الا أنه كان يراقبهم ويبث جواسيسه حولهم لينبؤوه بأخبارهم ، كما كان يعين كثيرا من عمال المدن بنفسه ، ويتصل بهم مباشرة أو عن طريق حكام الولايات الكبرى . وكان العزيز يعين بجانب الولاة جماعة يثق بهم ليكونوا عيونا على الولاة ، ومن هؤلاء الجباة وأصحاب الخراج .

أما الادارات الرئيسية فى الدولة الفاطمية فى عصر الغزيز بالله ، فكانت متعددة ، يشرف كل منها على ناحية من نواحى الادارة العامة ، كما اتخذ جوهر الصقلى بقصر الخليفة الفاطمى المعز عدة خزائن ، كذلك رتب به أيضا الدواوين . فلما قدم مولاه المعز لدين الله الى مصر ونزل بقصره بالقاهرة أبقى دواوين مملكته كما وضعها جوهر .

ولما تولى الخليفة العزيز بالله ، قلد الوزارة ليعقوب بن كلس ، وقام الوزير بنقل الدواوين الى داره ، فأصبحت كل دواوين الدولة

---

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ١٦١ .

(٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٤ — ٤٨٨ .

فى قصره ، واحتشـد القصر بالحجاب والكتاب وكبار الموظفين فلما مات ابن كلس فى ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ نقل الخليفة العزيز الدواوين من قصر وزيره الى قصر الخليفة ، وبذلك استمرت هذه الدواوين فى قصر الخلافة كما كانت فى عهد الخليفة المعز لدين الله . حتى اذا تولى الحاكم بأمر الله الخلافة نقل أبو الفتح المسعود ابن طاهر الوزان ، الذى تقلد فى ذى الحجة سنة ٤٠٩ هـ (١٠١٨م) الوساطة ، جميع الدواوين الى داره (١) .

وأشهر الدواوين التى كانت فى قصر ابن كلس فى عصر الخليفة العزيز بالله ديوان العزيزية ، وينظر فى الأمور التى تتعلق بشخص الخليفة مباشرة ، كالحرس وشئون الحاشية . أما الدواوين الأخرى، فكان بعضها يتولى شئون الجيش ، أو المسائل المالية ، أو شئون الكتاب ، والمسجلات ، وبعضها يتولى شئون الخراج ، ولكل ديوان هيئة من الموظفين .

ومن هذه الدواوين أيضا ، ديوان الشام ، وديوان الحجاز ، وقد تولاهما فى عصر الخليفة العزيز بالله أبو طاهر النحوى الذى كان يعرف بالكاتب ، وكانت مهمته ابلاغ شكاوى الرعية الى الخليفة . وكذلك ديوان الخاصـة للخليفة ، وقد تولاه عيسى ابن نسطورس (٢) .

وكانت هذه الدواوين تعطل فى يوم الجمعة وهو يوم العطلة الرسمية ، وهو ما كان متبعا أيضا فى العصر العباسى . كما كانت الدواوين تعطل أياما عند وفاة عظيم من عظماء الدولة ، فقد حزن الخليفة العزيز بالله كما ذكرنا على وفاة وزيره ابن كلس ، وأغلق الدواوين ١٨ يوما حدادا على وفاته .

---

(١) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ١٢٤ .

(٢) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٥٤ .

ومن أبرز الدواوين ديوان الانشاء ، ودواوين الادارة المالية التى تقوم بجباية الأموال وانفاقها ، ودواوين الادارة المحلية التى تحكم الولايات . وتنقسم الدواوين الرئيسية بدورها الى عدة دواوين فرعية لكل منها مهمة خاصة . وكان ديوان الانشاء من أهم دواوين الادارة فى عهد الخليفة العزيز بالله وازدادت أهمية هذا الديوان عما كان عليه فى عهد الطولونيين والاخشيديين ، فقد أصبحت مصر مركزا للامبراطورية الفاطمية ، وتولى الديوان كاتب يقال له صاحب ديوان الأنشاء يقوم بتسلم المكاتبات الواردة ، ثم عرضها على الخليفة لدراستها واعتمادها وكان مرتبه مائة وخمسين دينارا ، ويطلق عليه أيضا اسم (كاتب الدست الشريف) أو (الشيخ الأجل) (١) ويتقاضى كل كاتب من الكتاب الذين يعاونوه ثلاثين دينارا .

ويلى صاحب الأنشاء فى المرتبة صاحب القلم الدقيق ، الذى كان يوقع على المظالم ويجالس الخليفة ، وكان يتقاضى مائة دينار فى كل شهر . ويلى صاحب القلم الدقيق فى الرتبة صاحب العلم الجليل ، ومهمته تسلم رقاع المظالم من صاحب القلم الدقيق وعرضها على الخليفة (٢) .

ومن الدواوين الفاطمية الهامة فى عصر العزيز ، ديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى ، وكان يتولى الشئون الادارية فى أقاليم الدلتا كالشرقية والمرتاحية والدقهلية والأبوانية والغربية والسمنودية والمنوفيتين والبحيرة وغيرها من الثغور . أما ديوان أعلى الأرض أو ديوان الصعيد فيتولى ادارة الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى ويتبعه الجيزة والأطفيحية والبوجيرية والفيومية والبهنساوية والأشمونيين والأسيوطية (٣) .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٩٥ و ١٠٣ .

(٢) سرور : الدولة الفاطمية ص ١٤٥ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٥ .

حرص الفاطميون على أن يكون موظفو الادارة من بين ذوى الخبرة ، كما اهتموا بتدريب كتاب الدواوين على جميع الأعمال الكتابية ، وكانت هـذه الطريقة تهيىء لأرباب الوظائف قدرا كبيرا من الثقافة الادارية (١) .

ويرى المؤرخ العربى المعاصر الدكتور حتى أن الحكومة الفاطمية فى ادارتها العامة قـد اتبعت النظام العباسى أو بالحرى النموذج الفارسى القديم (٢) .

وكان الموظفون فى العصر الفاطمى يتقاضون الرواتب الكبيرة ، ويمنحون الملابس والهدايا الثمينة فى الأعياد والمواسم ، وأصبحوا بفضل هذه الرواتب والمنح فى رغد من العيش ، مما سهل عليهم القيام بواجباتهم على أكمل وجه ، وبذل كل جهد لتنمية مرافق البلاد الاقتصادية ، والدفاع عن البلاد اذا تعرضت لأخطار خارجية .

الكتابة والحجابة والشرطة فى عهد العزيز :

كانت الكتابة فى عهد الفاطميين تلى الوزارة فى الرتبة ، وكان الخلفاء لا يسندونها الا لمن أنسوا فيهم الكفاية والقدرة على معالجة الأمور ، فاذا حاز صاحبها رضاء الخليفة رشحه للوزارة فى أى وقت . وقد اتخذ الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى المغرب جوهر الصقلى كاتبا له فى سنة ٣٤١ هـ .

واهتم الفاطميون بالشعراء والكتاب وغيرهم من رجال الأدب لنشر مذهبهم ، واحاطة خلافتهم بالعظمة والتقديس . وكان من بين هؤلاء عدد غير قليل من الكتاب ، ومن طبقة الموظفين بديوان سر الخليفة ، وكان الخلفاء يجزلون لهم العطايا والخلع ، وعلى رأس هؤلاء الكتاب صاحب الانشاء .

---

(١) ماجد : نظم الفاطميين جـ ١ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٢ .

حرص الخليفة العزيز بالله على اختيار كتابه ممن اشتهروا بسعة الاطلاع فى الأدب ، والتفوق فى فن الانشاء . وتحدث (ابن مماتى) عن الشروط الواجب توافرها فيمن يتولى الكتابة فقال انه يجب أن يكون الكاتب حرا مسلما ، عاملا صادقا أديبا ، فقيها عالما ، كافيا فيما يتولاه ، أمينا ، حاد الذهن ، قوى النفس ، جميل الذكر ، طويل الروح ، كثير الاحتمال ، حلو اللسان ، شديد الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، لا يقبل هدية أو عطية (١) .

لم يكن للحاجب فى الدولة الفاطمية ما كان له من النفوذ فى العصر العباسى الثانى . ويقول ابن خلدون انه لم يكن فى دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الأسم للبداوة التى كانت فيهم ، وربما يوجد فى دولة الفاطميين عند اتساعها وحضارتها ، الا أنه كان على نطاق ضيق .

ولكن الحاجب كان على أى حال يمثل أحد رجال البلاط الفاطمى، بدليل ما ذكره القلقشندى عند حديثه عن انعقاد مجلس الخليفة فى العصر الفاطمى ، فقال أن صاحب بيت المال والحجاب والأمناء كانوا يأخذون أمكنتهم عند الأبواب ، فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا فيه أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم من يرى من المناسب تقديمه للخليفة . فمن هذا نعلم أن الحاجب لم يكن يتمتع بذلك النفوذ الذى تمتع به الحاجب فى الدول الاسلامية الأخرى . ولم يقتصر اتخاذ الحجاب على الخليفة الفاطمى ، بل اتخذ كل من قاضى القضاة والوزير حاجبا أو أكثر ، يقفون بين يديه اذا جلس للحكم (٢) .

كانت الشرطة عدة الخليفة فى حفظ الأمن وبث الطمأنينة بين الناس ، فكان صاحبها يراقب الأشرار والمفسدين ، ولذا كانت

---

(١) ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين ص ٥ — ٦ .

(٢) صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٨٧ ، والدولة الفاطميـــة لحسن ابراهيم ص ٢٨٢ .

الشرطة منذ ظهورها وظيفة دينية وابتدات بسيطة فى أول نشأتها ، فكان نظام القسس فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ثم تطورت الشرطة فى عهد الخليفة على بن أبى طالب فأصبحت من الوظائف التى يتولاها علية القوم ، وأصبح متوليها فى العصرين الأموى والعباسى من كبار الموظفين المرشحين للحجابة والوزارة . وبعد أن كانت وظيفة تابعة للقضاء ، تنفذ أحكامه ، انفصلت عن القضاء واصبح لها شخصية متميزة وسلطات خاصة .

ولما فتح العرب مصر ، كانت الشرطة فى مدينة الفسطاط . ولما تأسست مدينة العسكر سنة ١٣٢ هـ أنشئت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا كما أطلق على دار الشرطة فى الفسطاط دار الشرطة السفلى .

وعند فتح الفاطميين لمصر ، نقل جوهر الشرطة العليا من العسكر الى القاهرة وذكر ابن دقماق (١) أن صاحب الشرطة توفى فى نفس اليوم الذى وصل فيه جوهر الى مصر ، فأسند عمله الى (جبر) ، وبقيت دار الشرطة السفلى فى الفسطاط وتقلدها عروبة ابن ابراهيم وشبل المعرضى .

وعندما قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر ، عهد بالشرطة السفلى والشرطة العليا الى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، وكتب لهما بذلك سجلا قرىء يوم الجمعة على منبر جامع أحمد ابن طولون ، وأصبح ذلك سنة متبعة فى عهد العزيز وسائر الخلفاء الفاطميين . وفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) أسند المعز لدين الله الشرطة العليا لجبر بن القاسم ، ثم جمع له الشرطتين العـــليا والسفلى (٢) .

---

(١) الانتصار لواسطة عقد الأمصار جـ ٤ ص ١١ .
(٢) ابن منجب : الاشارة ص ٢٤ .

وفى عهد العزيز بالله ، قام نزاع بين صاحب الشرطة وبين القاضى الذى كان يعتبر نفسه صـــاحب الولاية الشرعية الأولى (سنة ٣٦٩ هـ) ، وتدخل العزيز ووزيره فى حسم هذا النزاع .

بريد العزيز بالله :

اهتم الفاطميون بالبريد فى دولتهم ، وكان البريد نوعين ، بريد جوى ، وبريد برى . أما البريد الجوى ، فقد استخدم الخلفـــاء الفاطميون فى نقله الحمام الزاجل . وأشار القلقشندى الى اهتمام هؤلاء الخلفاء بالحمام كوســيلة من وسائل نقل الرسائل فقال : « وحافظ عليه ـ أى الحمام ـ الخلفاء الفاطميون ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام » .

وقص القلقشندى قصة طريفة ، فروى أن الخليفة العزيز بالله قال لوزيره يعقوب بن كلس انه لم ير طوال حياته (القراصـــية البعلبكية) ، وأنه يحب أن يراها . وكان بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق . فكتب الوزير فى الحال بطاقة يأمر فيها نائبه بدمشق بأن يجمع ما بها من الحمام المصرى ، ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية ، ويرسلها الى مصر . ففعل ذلك ، فلم يمض النهار حتى قدمت تلك الحمائم بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير ابن كلس ، وطلع به الى العزيز فى الحال ، فأبدى العزيز دهشته من ذلك (١) .

وكان للحمام الزاجل محطات منتظمة ، وكان الحمام يحمل فى رقبته وأقدامه علامات مميزة . وتولى موظفون العناية به وتدريبه . وكانت الرسائل التى يحملها الحمام تكتب فى عبارات موجزة ، ويستغنى فى تحريرها عن الألقاب والديباجات ، وتدون على ورق خفيف يسمى « ورق بريد الحمام » أو « ورق الطير » وتشـــد

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٣٩١ .

الرسالة تحت جناح الحمامة أو الى ذيلها . ولضمان وصول الرسالة ، كانت الرسالة ترسل من صورتين ، وعلى دفعتين ، بين كل حمامة والأخرى قدر ساعتين ، فاذا ضلت احدى الحمامتين أو قتلت لسبب ما ، أمكن الاطمئنان على وصول الحمامة الثانية . وكان البريديون يختارون الطقس المناسب لارسال الخطابات بواسطة الحمام .

وفى عصر الخليفة العزيز بالله ، كان الحمام الزاجل يستخدم فى اللهو كما استخدم فى البريد . فقد حدث مرة أن طائرا للوزير يعقوب بن كلس سبق طائرا للعزيز فى سباق أقيم للطيور ، مما أثار غضب الخليفة . واتخذها أعداء الوزير فرصة للكيد له ، فكتبوا الى الخليفة أن ابن كلس اختار من كل صنف أعلاه ، ولم يترك لأمير المؤمنين الا أدناه حتى الحمام ، فبلغ ذلك الوزير ، فكتب الى الخليفة العزيز :

قل لأمير المؤمنين ... له العلى والمثل الثاقب
طائرات السابق ولكنه ... لم يأت الا وله حاجب

وأبدى الخليفة العزيز بالله اعجابه بذكاء وزيره ابن كلس ولباقته ، وسرعة خاطره ، ولم ينصت الى كيد أعدائه (١) .

أما البريد البرى ، فقد كان فى عصر العزيز بالله بواسطة الخيل ، فكان لكل محطة من محطات البريد عدد من الخيل تعرف باسم (خيل البريد) ، يتولى أمورها عدد من الموظفين والسياس . وزودت المحطات بالماء والطعام والعلف والزاد ، وبها مبان لايواء عمال البريد وخيولهم .

وكان الخليفة الفاطمى يختار البريديين ممن عرفوا باخلاصهم له ، واتصفوا بالكفاية والذكاء والأمانة ، فقد يحملون أحيانا رسائل

---

(١) تاريخ البريد فى مصر ص ٤٤ .

شفوية غير مكتوبة ، وقد يعهد الخليفة اليهم بمراقبة العمال والولاة ، أو التجسس على الأعداء . وعدد القلقشندى (١) الصفات الواجب توافرها فى البريدى ، فذكر أنه يجب أن يكون قديرا على تنميق الكلام وتحسين العبارة ، ويكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان ولين ، صدوقا بريئا من الطمع .

واختص البريد فى عهد العزيز بالله بأعمال الدولة ، ولم يقم بنقل مراسلات الجمهور . وكان البريدى يكلف بحمل البريد العادى الى النواب والولاة ، فاذا أثبت كفايته واخلاصه سمح له بحمل الرسائل الهامة الى من هم أرقى درجة كالملوك والأمراء أما مراسلات الجمهور ، فكان أغنياؤهم يبعثون رسائلهم مع عبيدهم ، وينتهز الفقراء هذه الفرصة ليرسلوا خطاباتهم مع هؤلاء العبيد .

وحمل البريدى شارة هى لوح من الفضة أو النحاس الأحمر فى حجم الكف ، منقوش على أحد وجهيه بعض العبارات الدينية واسم الخليفة ، لتمييزه عن سائر موظفى الدولة ، ولتسهيل قيامه بواجباته . وكان البريدى على دراية كبيرة بالطرق والعقبات التى قد تصادفه ، كما كان ينقل أحيانا بعض الأشياء الخفيفة لسد حاجة البلاط والموظفين ، وكثيرا ما حمل بعض الأدوية التى يحتاج اليها بصفة عاجلة (٢) .

جيش العزيز بالله :

اهتم العزيز بالله بانشاء جيش فاطمى قوى ، يعتمد عليه فى تدعيم الدولة الفاطمية وقتال أعدائها ، وقد أثبت هذا الجيش فى عهد العزيز كفايته وتفوقه فى قتاله لجيش القرامطة وأفتكين التركى ببلاد الشام .

---

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ١١٥ .
(٢) مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ١٢٣ .

تألف جيش العزيز من الأمراء ، وطوائف الجند . وكان الجند يمثلون عدة عناصر ، أبرزها المغاربة من البربر ، وخاصة الطوائف الكتامية والباطلية والمصامدة والجودرية . وبرز فى عهد العزيز بالله الجند الأتراك والديلم . ويقدر النويرى فى كتابه (نهاية الأرب) عدد جنود جيش المعز عند قدومه الى مصر بمائة ألف مقاتل كتامى واربعين ألفا من البربر وستين ألفا من الزنوج . واختطت قبائل هذا الجيش خططها حول قصر الخليفة ، ورأى جوهر الا يقيم المغاربة فى الفسطاط حتى لا يثيروا المتاعب لأهلها ، وكان اذا حل المساء بعث جوهر مناديا يجوب طرقات الفسطاط صائحا : « لا يبيتن أحد فى المدينة من المغاربة » .. وأنزل جوهر جند المعز فى مواضع فى القاهرة عرفت بالحارات ،لكل طائفة حارة ، يقيم فيها الجند وأسرهم ، وبها الأسواق والمحلات التجارية .

واهتم العزيز بالله بمد جيشه بأنواع السلاح المختلفة ، ويصف المؤرخون خزائن السلاح وصفا مسهبا ، فكانت تحوى الخوذات والرماح والسهام والدروع والأقواس . وهناك خزائن خاصة بالخيام أو سروج الخيل . واهتم العزيز بتزويد جيشه بالمجانيق التى كانت ترمى الأسوار بالحجارة ، وألحق بالجيش جماعة من (النفاطين) تقوم باعداد قوارير مملوءة بالنفط تلقيها على الأعداء لتحول دون تقدمهم .

انقسم الجيش الفاطمى الى خمسة أقسام : المقدمة وتتولى المناوشات الأولية واستكشاف الطرق وتتألف غالبا من الفرسان . والقلب ، وهو وسط الجيش ويتقدمه القائد العام . والميمنة والميسرة أو الجناحان . أما القسم الخامس فهو (ساقة الجيش) اى مؤخرته . ولكل قسم قائده ويأتمر بأوامر القائد العام ، ولذا كان يطلق على هذا الجيش اسم (خميس) . ويرأس كل عشرة جنود عريف ، ويرأس كل عشرة عرفاء نقيب ، ويرأس كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير . ويصحب الجيش كاتب وقاض

وترجمان ، وعمال لتمهيد الطرق وتركيب آلات الحرب ، وأطباء مزودون بالدواء ووسائل العلاج . كما اهتم الفاطميون بأصحاب الأخبار والعيون ، ويشبهون المخابرات فى الجيوش الحديثة .

واهتم الفاطميــــون بدواوين الجيش ، مثل ديوان الجيش ، وديوان الرواتب ، وديوان الاقطاع . فيشرف ديوان الجيش على تدريب الجند ، ويسجل ديوان الرواتب أسماء الجند وعطاءهم الشهرى ، وبلغ عطاء الجندى عشرين دينارا شهريا ، ويختص ديوان الاقطاع بالاقطاعيات الممنوحة للجند .

وحرص الخليفة العزيز على توديع الجيوش بنفسه ، فكان يجلس فى منظرة باب الفتوح ، ويمثل القائد بين يدى الخليفة ، فيخلع عليه خلعة مزركشة بالذهب . ويقوم صاحب بيت المـال بتسليم القائد صناديق الأسلحة والمؤن والعتاد . ثم يأمر الخليفة ببدء المسير ، ويحتشد الناس لتوديع الجيش ، ويقبلون الأرض تحية للخليفة .

وكان الخليفة الفاطمى يثير حماسة جنوده بعدة وســـائل . فيغدق عليهم الأموال ، ويوليهم المناصب ، كما يخوفهم من الله عز وجل ومن غضب الخليفة عليهم أيضا . وكان الخلفاء الفاطميون أكثر سخاء من الخلفاء العباسيين والأمويين ، واهتم الفاطميون برعاية أسر الجند أثناء القتال أو عند استشهادهم . كما زود الفاطميون جندهم بالوفير من السلاح والمؤن ، ولذا أصبح الجند الفاطميون مثالا للنظام والطاعة والاخلاص ، وابدوا شجاعة وحازوا انتصارات رائعة فى عهدى المعز والعزيز .

أسطول العزيز بالله :

امتد اهتمام العزيز بالله بالقوات الحربية الى الأسطول ، وخاصة بعد تهديد البيزنطيين لبلاد الشام التى كانت تابعة لمصر ، واستيلائهم على بعض مدنها مثل أنطاكية وحلب . ولذا حرص كل من الخليفتين المعز والعزيز على انشاء أسطول فاطمى عظيم ، واحتشدت سفنه

فى مدينة مصر ، وفى الاسكندرية ، ودمياط ، ورابطت بعضها فى موانىء الشام مثل عكا وصور وعسقلان . وأشاد المؤرخ المقريزى باهتمام المعز والعزيز بالأسطول فقال : « لما سار الروم الى البلاد الشامية بعد سنة خمسين وثلثمائة ، اشتد أمرهم بأخذهم البلاد ، وقويت العناية بالأسطول فى مصر منذ قدم المعز لدين الله . وأنشأ المراكب الحربية ، واقتدى به بنوه . وكان لهم اهتمام بأمر الجهاد ، واعتناء بالأسطول ، وواصلوا انشاء المراكب بمدينة مصر واسكندرية ودمياط ، من الشوانى الحربية والشلنديات والمسطحات ، وتسييرها الى بلاد الساحل ، مثل صور وعكا وعسقلان ، وكانت فى أيام المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة » .

وأنشأ الخليفة العزيز بالله ـ كما يذكر المسبحى المعاصر للعزيز ـ دارا لصناعة السفن بالمقس ، وهى قرية على النيل ، وبنى بهذا المرفأ الصناعى ستمائة مركب وصفها المسبحى فقال : « انه لم ير مثلها فيما تقدم كبرا ورشاقة وحسنا » (١) .

وقام الأسطول المصرى الفاطمى بدور كبير فى عصرى المعز والعزيز فى الحروب التى قامت بين القرامطة والفاطميين (٣٦٠ ـ ٣٦٧ هـ) ، فقد استطاع أسطول القرامطة أن يصل الى مصر ويهدد دلتا النيل ويغرق كثيرا من سفن الفاطميين فى البحر المتوسط ، كما استطاع أسطول الفاطميين أن يمد الحاميات الفاطمية المحاصرة ، فى بلاد الشام .

واعتمد العزيز بالله على غابات لبنان فى تزويد أسطوله بحاجته من الأخشاب ، الى جانب الأشجار المزروعة بمصر ، مثل أشجار الجميز والسنط والنبق والسرو ، وغيرها من أشجار الوجه القبلى ، وخاصة أشجار مدن البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص . وقد احتكر الفاطميون أجود أنواع الخشب لتوفير حاجيات

---

(١) خطط المقريزى ج ٢ ، ص ١٩٥ .

الأسطول . على أن انتاج البلاد من الخشب لم يكن كافيا ، كما أن بعض أنواعه لا تمتاز بالصلابة المطلوبة . ولذا كان الفاطميون يستوردون الأخشاب من تجار البندقية ، وكثيرا ما تدخل الأباطرة البيزنطيون لمنع المدن الايطالية من مد الفاطميين بحاجتهم من الأخشاب .

وتطورت الاسكندرية ودمياط وموانى الشام فى عهد العزيز ، وأصبحت من أبرز الموانى التى ترابط بها السفن الفاطمية . كما أصبحت (عيذاب) قاعدة بحرية للأسطول الفاطمى فى البحر الأحمر .

رأس الأسطول المصرى عشرة قواد ، ويرأسهم (قائد القواد) أو (أمير الجيش) ، وبلغ مرتب كل قائد عشرين دينارا شهريا . وأوقف الخلفاء الفاطميون كثيرا من الاقطاعات المحبوسة للانفاق على الأسطول (١) . وكانت الخدمة بالأسطول اختيارية ، دون اجبار ، وكان البحارة موضع تقدير من عامة النـاس ، فكانوا يسمونهم « المجاهدين فى سبيل الله » أو « الغزاة فى أعداء الله » (٢) وكان الخليفة العزيز يقطع رجال الأسطول اقطاعات عرفت باسم « أبواب الغزاة » ، وكان يسمح لهم بالاستيلاء على كل ما يقع فى أيديهم خلال المعارك من أموال وثياب ومتاع ، ولا يحتفظ الخليفة سوى بالأسرى والسلاح . وكان ديوان الجهاد ، أو ديوان العمائر ، يشرف على الأسطول .

والى جانب الأسطول الحربى ، كان هناك أسطول تجارى . وأصبح للدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله أسطولان تجاريان ، أحدهما فى البحر المتوسط ، والآخر فى البحر الأحمر . وأصبحت الاسكندرية ودمياط فى مصر ، وعسقلان وصور وصيدا وعكا فى الشام ، من أهم موانى البحر المتوسط ، كما أصبحت عيذاب أبرز موانى البحر الأحمر . وكانت الأساطيل التجارية مزودة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٥٢٣ .
(٢) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ١٩٤ .

بسفن حربية للقضاء على قراصنة البحار . وحملت السفن التجارية الانتاج المصرى ، وخاصة المنسوجات ، الى كثير من دول العالم .

وفى عهد الخليفة العزيز بالله ، احترقت خمس عشاريات ، وأتت النيران على العدة والسلاح ، ولم يبق الا ستة مراكب ، واتهم العزيز الروم باشعال هذا الحريق ، وكانوا مقيمين حينئذ بجوار دار الصناعة فى المقس . وأثار هذا الحريق مشاعر عامة الناس ، فقاموا بنهب دور هؤلاء الروم ، وقتلوا نحو مائة رجل منهم (١) .

تنوعت السفن الحربية التى تكون منها الأسطول الفاطمى ، فمنها : الشوانى (جمع شينى أو شونى) التى امتازت بأبراج للدفاع والهجوم واحتوت على أهراء لخزن القمح وصهاريج لخزن الماء العذب . ومن سفن الأسطول أيضا : الحراريق (جمع حراقة) وهى من المراكب الحربية الكبيرة المخصصة لمهاجمة سفن العدو بالنفط الذى يرمى بالمجانيق والسهام . كذلك كان من سفن الأسطول الطرائد (جمع طريدة) وتستخدم فى نقل الخيول ، والشلنديات وهى مراكب مسطحة تقوم بحمل العتاد والجند ، والحمالات وتستخدم فى حمل الذخيرة (٢) .

القضاء والمظالم فى عهد العزيز :

لم يكن القضاة فى عهد الطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) والأخشيديين (٣٢٣ — ٣٥٨ هـ) تابعين لمذهب واحد ، بل كان كل منهم يحكم وفق المذهب الذى ينتمى اليه ، واشتهر قضاتهم بالعدل والكفاية .

وكان قاضى القضاة فى مصر عند الفتح الفاطمى سنة ٣٥٨ هـ هو (أبو الطاهر) ، وقد تولى هذا المنصب منذ سنة ٣٤٨ هـ ،

---

(١) الخطط ج ٢ ص ١٩٥ .
(٢) ماجد : نظم الفاطميين ج ١ ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

ورأى جوهر أن عزله وتعيين قاض آخر من الشيعة قد يثير غضب المصريين ، فرأى انه من الحكمة أن يبقيه فى منصبه ، ولكنه فى نفس الوقت عمل على الحد من نفوذه . وكان جوهر قد تعهد للمصريين أن يحقق لهم الحرية الدينية التامة فى اعتناق مذهبهم .

ثم قدم الخليفة المعز لدين الله الى مصر ، ونزل جميع المستقبلين عن مطاياهم وقبلوا الأرض بين يدى الخليفة ، ما عدا أبا الطاهر ، وسأل المعز عن هذا الرجل الذى خالف الناس جميعا ، وتقدم حاجب للخليفة الى القاضى يلومه ، فقال القاضى بصوت مرتفع بحيث يسمعه المعز : « وما هذا ، هو الشمس التى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من علامات الساعة طلوع الشمس من مغربها ، وقال الله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون) » . ونالت هذه العبارات اعجاب المعز ، وأقر القاضى فى منصبه . وزاد اعجاب الخليفة به حين سأله : كم رأيت من خليفة ؟ فأجاب : ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله صلوات الله عليه .

ولكننا نرى أن ابقاء المعز على هذا القاضى ليس اعجابا بلباقته وسرعة بديهته ، ولكنه لضرورة سياسية ، حتى لا يثير مشاعر المصريين السنيين ، ودليلنا على ذلك ما بدأ به المعز بعد فترة من الحد من سلطات هذا القاضى . ففى شوال سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) اشرك المعز مع أبى الطاهر المالكى المذهب ، أبا سعيد عبد الله ابن محمد بن أبى ثوبان المغربى الذى كان قد صحب المعز الى مصر ، فكان يختص بالنظر فى مظالم المغاربة فى أول الأمر ، ثم اتسعت اختصاصاته ، فأصبح ينظر فى القضايا المشتركة بين المغاربة والمصريين ، ثم ازداد نفوذه حتى أصبح ينظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية (١) .

---

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٣٨٧ .

وبعد وفاة ابن ابى ثوبان ولى الخليفة العزيز ابن النعمان الى جانب أبى الطاهر وهذا التنصيب يدل على ما ظهر فى سياسة الفاطميين من تغير جديد بعد أن تم لهم فتح مصر حيث أصبح القضاء يقلد لاثنين من القضاة أحدهما سنى والآخر شيعى . وليس معنى ذلك زوال سلطة القاضى السنى تدريجيا فحسب بل ذلك بايذان أيضا بانتهاء عهد تقلد السنين منصب القضاء (١) .

ولما اقتسم القضاء ابن النعمان وأبو الطاهر كان لكل منهما شهوده الذين يستعين بهم فى أحكامه . وجلس أولهما للحكم فى الجامع العتيق أى جامع عمرو وثانيهما فى الجامع الأزهر فظلت الحال على ذلك الى شهر صفر سنة ٣٦٦ هـ فى خلافة العزيز بالله وفيه اضطلع على بن النعمان بالقضاء عامة .

وكان الخليفة العزيز بالله يرغب فى تحويل القضاء الى الشيعيين ويجعله بصفة خاصة فى بيت النعمان . ولذا عهد العزيز فى سنة ٣٦٥ هـ الى على بن النعمان بالاشراف على دار العرب والجامعين بمصر والقاهرة أى جامعى عمرو والأزهر وهذه الاجراءات ترمى الى الحد من نفوذ القاضى السنى والى نشر قواعد المذهب الاسماعيلى بطريق القضاء .

ولم يرض السنيون عن هذا الاجراء وحز فى نفوسهم أن يروا القاضى الشيعى المغربى على بن النعمان يشارك أبا الطاهر القاضى السنى فى مجلسه بجامع عمرو ولذا انتصر لأبى الطاهر من كان معه من الشهود والسنيين كما انتصر له الفقهاء السنيون وكثير من التجار . واعتبر الخليفة العزيز هذا الاحتجاج مظهرا من مظاهر الخروج على طاعة الدولة الفاطمية وعلى مذهبها الاسماعيلى ولذا قبض رجال الشرطة على جميع المتظاهرين وألقوا بهم فى السجن

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٣٠٩ .

ولم يطلق سراحهم الا بعد أن تدخل على بن النعمان (١) .

تقدم القاضى أبو الطاهر باستقالته الى الخليفة العزيز بالله وعللها بمرضه وشيخوخته وكان هذا القاضى قد أصيب بفالج أبطل شقه مما جعل العزيز بالله يقول بعد أن رآه على هذه الحال : « ما بقى الا أن تقددوه » (٢) .

ويبدو أن أبا الطاهر حزن كثيرا لازدياد نفوذ على بن النعمان وأدى حزنه الى اصابته بالفالج . كما يبدو أن الخليفة العزيز كان ينوى أن ينقل القضاء من السنيين الى الشيعيين قبل استقالة أبى الطاهر فى صفر ٣٦٦ هـ وان كان العزيز قد تردد كثيرا فى اتخاذ هذا الاجراء بسبب حب وتقدير الشيعيين لأبى الطاهر مما أدى الى المظاهرة التى أشرنا اليها . ولكن مرض أبى الطاهر ثم استقالته حل المشكلة .

وتحدث المقريزى عن استقالة القاضى فذكر أن الخليفة العزيز ركب فى صفر سنة ٣٦٦ هـ الى الموضع المعروف بالجنان فى جزيرة الروضة على مقربة من جامع عمرو حيث يعقد أبو الطاهر مجلس الحكم وهناك استقبل القاضى وشهوده الخليفة العزيز وسأله أن يأذن له فى الاستقالة بسبب ضعفه وقبل العزيز استقالة القاضى السنى على الفور وكأنه كان ينتظرها أو يتوقعها ، وبعد ثلاثة أيام ولى العزيز القاضى الشيعى على بن النعمان « القضاء على مصر وأعمالها ، والخطابة والامامة والقيام على الذهب والفضة (٣) ، والمواريث ، والمكاييل » (٤) .

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٥٨٧ .
(٢) الكندى ص ٥٨٥ .
(٣) أى تولى أمور بيت المال .
(٤) الكندى ص ٥٨٩ .

أصبح ابن النعمان قاضى القضاء طوال عهد الخليفة العزيز بالله وقد احتفل بتقليده منصبه فى الجامع العتيق وظل يتولى هذا المنصب حتى مات فى رجب سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) وكان شاعرا مجيدا وهو أول من تلقب بقاضى القضاة فى مصر مثلما كان أبو يوسف ، صاحب كتاب الخراج ، أول قاض للقضاة فى بغداد عاصمة الدولة العباسية فى عهد الخليفة هارون الرشيد .

واتسعت سلطات على بن النعمان فأصبح يولى القضاة أو معظمهم ، من الاسماعيلية وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الاسماعيلية لا بمذهب الشافعى أوغيره من الأئمة السنيين واستخلف أخاه محمدا على قضاء تنيس ودمياط والفرما وغيرها .

ولما توفى على بن النعمان ولى الخليفة العزيز بالله ابنه الحسين القضاء فى مصر وما يتبعها من الأعمال وأسند اليه مقاليد الدعوة الفاطمية فأصبح يطلق عليه لقب (قاضى القضاة وداعى الدعاة) واستمر أولاد النعمان يتولون هذا المنصب حتى سنة ٣٩٨ هـ .

من واجبات القاضى فى عهد العزيز بالله أن يحضر مع الخليفة فى أيام المواسم والأعياد الرسمية فاذا جلس الخليفة فى المواكب دخل القاضى وسلم عليه بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ويقول بصوت مسموع : السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته (١) . وفى ليالى الوقود الأربع (٢) كان على القاضى أن يرد السلام على الخليفة عندما يظهر للناس ويبدأه بالسلام ويركب هو والشهود بمجرد حجب الخليفة يغلق الطاقتين وانفضاض الناس ، الى دار الوزير ليسلموا عليه وليدعوا له .

ثم كان على القاضى بعد ذلك أن يحضر الى جامع عمرو ويدخل فى باب الزيادة التى يحكم فيها ليصلى فى الجامع ركعتين . وكان

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر جـ ٢ ص٥٤٠ .

(٢) وهى ليلة أول رجب ونصفه وأول شعبان ونصفه .

يوقد له التنور الفضة بالجامع فاذا خرج القاضي من الجامع ، وكان ساكنا بمصر ، صحبه والى مصر الى منزله ، وان كان ساكنا بالقاهرة كان على والى القاهرة أن يصحبه الى داره .

وفى ليلة النصف من رجب كان على القاضى فوق ما تقدم أن يتوجه بعد صلاته فى جامع عمرو الى القرافة حيث يصلى فى جامعها . كما كان يشهد المولد النبوى ومولد الامام على ويكون أول من تفرق عليه الحلوى . كما كان القاضى يحضر ركوب الخليفة فى المواكب العظام وخاصة أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، وعند ركوب الخليفة لصلاة عيدى الفطر والأضحى ، كما كان يعد الخطبة التى كان الخليفة يلقيها . وكان القاضى فى عيد الأضحى يقدم الى المنحر ويقوم بتوزيع لحوم الحيوانات التى يذبحها الخليفة بيده على جوامع القاهرة . كما كان القاضى يرتدى ملابس الحداد فى يوم عاشوراء أى يوم ذكرى مقتل الحسين ويشارك فى سماط الحزن كما كان يحضر الأسمطة فى رمضان كما كان يصحب الخليفة العزيز بالله عندما كان يشرف على أسطوله فى المقس . وكان القاضى والفقهاء يحضرون مجالس يعقوب بن كلس وزير الخليفة العزيز بالله فى كل ليلة جمعة حيث كان الوزير يقرأ عليهم مصنفاته (١) .

وفى عهد العزيز بالله أشرف كل من على ومحمد ابنى النعمان ، الى جانب توليهما القضاء ، على دور الضرب لضبط عيار ما يضرب من الدنانير والموازين والمكاييل . كما كان القاضى يتولى أيضا النظر فى المظالم وقضايا الجند ويتولى بعض المسائل الدينية ، فكان محمد ابن النعمان فى عهد العزيز يتولى الخطابة والامامة وكثيرا ما جلس محمد بن النعمان لقراءة علوم الشيعة ، كما تولى الاشراف على الدعوة الفاطمية (٢) . وبلغ مرتب قاضى القضاة مائة دينار فى الشهر

---

(١) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٢٥٦ .
(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

عدا المخصصات الأخرى (١) .

وعندما شعر الخليفة العزيز بالله بدنو أجله استدعى قاضى القضاة محمد بن النعمان ليوصيه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وتولى القاضى غسل الخليفة (٢) .

كان للمظالم ديوان خاص يعرف بديوان المظالم ، وهو هيئة قضائية عليا تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ويسمى رئيس هذا الديوان (صاحب المظالم) ، وسلطة أعلى من سلطة القاضى . ويقول ابن خلدون فى مقدمته عن المظالم : « وهى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبة تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المتعدى ، وكأنه يمضى ما عجز القضاة أو غيرهم عن امضائه ، ويكون نظره فى البينات والتقرير واعتماد الامارات والقرائن ، وتأخير الحكم الى استجلاء الحق وحمل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضى » .

اهتم الخلفاء الفاطميون بالمظالم فقد كان على بن أبى طالب أول من نظر فى المظالم من الخلفاء الراشدين . وكانت محكمة المظالم تنعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما ويعين صاحب المظالم يوما يقصده فيه المتظلمون اذا كان من الموظفين ليتفرغ لأعماله الأخرى . أما اذا انفرد بالمظالم نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت محكمة المظالم تنعقد فى المسجد . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها بل تعدى اختصاصها الى الفصل فى شكاوى الشعب عامة . وكان صاحب المظالم أكثر حرية من القاضى فى أحكامه . ومما دعا الى انشاء هذا المجلس ما كان يتعرض تنفيذ أحكام القاضى من مصاعب ، ولا سيما اذا كان المدعى

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٢٦ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٥٥ .

عليه من أصحاب المراتب العالية أو كان يشغل وظيفة كبرى من وظائف الدولة (١) .

لما قدم جوهر الصقلى الى مصر جلس للنظر فى المظالم بنفسه ووقع على رقاع المتظلمين فى كل يوم سبت ، وحضر مجلسه الوزير والقاضى وكبار الفقهاء وأصدر أحكامه بنفسه . وكان جوهر يعهد أحيانا بالنظر فى المظالم الى ابن عيسى مرشد (٢) .

وعند قدوم المعز لدين الله الى مصر ، كان يتولى غالبا النظر بنفسه فى المظالم ، أو يعهد بها الى أحد كبار رجالات الدولة ، مثل يعقوب بن كلس وعسلوج بن حسن ، فكانا يجلسان للنظر فى المظالم فى جامع ابن طولون .

تولى أبو سعيد عبد الله بن ثوبان فى عهد الخليفة المعز لدين الله النظر فى المظالم الخاصة بالمغاربة (شوال ٣٦٢ هـ) ثم اتسعت اختصاصاته فنظر فى مظالم المصريين أيضا .

وعهد الخليفة العزيز بالله بالنظر فى المظالم الى الحسين ابن عمار (٣) . وكان ينظر فى المظالم أحيانا صاحب الباب فى باب الذهب بقصر الخليفة فيجلس بين يديه النقباء والحجاب على حسب مكانتهم ، فينادى المنادى بين يديه أن كل من له مظلمة فليتقدم ، وكان قاضى المظالم يولى غالبا بمرسوم من الخليفة ويقرأ سجله فى المسجد الجامع حيث كان يعقد جلساته .

وممن اشتهروا فى عهد الخليفة العزيز بالله بالنظر فى المظالم القاضى أحمد بن طالب التونسى ، وهو قاضى مصر وقد عهد اليه العزيز بالنظر فى المظالم (٤) .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٢٢ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢١٢ .
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ .
(٤) ابن حجر : رفع الأصر عن قضاة مصر ورقة ٤٢ .

حضارة مصر فى عهد العزيز بالله

نهضة زراعية فى مصر :

كان طبيعيا أن تهتم الدولة الفاطمية بأحوال الزراعة فى مصر فقد كان الفاطميون يعتمدون على الانتاج الزراعى فى موارد الدولة . وكان عصر الخليفة العزيز بالله هو العصر الذهبى للدولة الفاطمية ولمصر وللفلاح المصرى . وبلغت مساحة الأراضى المزروعة فى أول عهد العزيز ٢٨٥٬٧١٤ فدانا ولم تزد هذه المساحة طوال العصر الفاطمى بل نقصت فى عهد المستنصر نتيجة انخفاض ماء النيل وانتشار الأوبئة .

اهتم الخليفة العزيز بالله بالرى فشق الترع وأقام الجسور . وكانت الأراضى المصرية تشقها شبكة من الخلجان والأبحر (١) والترع . وقد بلغ عدد خلجان مصر فى ذلك العصر ثمانية وبلغ عدد الأبحر خمسة وعشرين أما الترع فقد كانت ١١٧ ترعة فى الوجهين البحرى والقبلى (٢) . وحدثنا ناصر خسرو عن العجلات المائية التى كان يستخدمها الفلاح المصرى فى رفع الماء لرى أرضه ، فاستخدم السواقى والقادوس والطنبور والشادوف .

واهتم الفاطميون أيضا بمقاييس النيل لأنها تحدد مدى الرخاء الاقتصادى . فاذا بلغ مستوى الماء ستة عشر ذراعا استبشر الناس ، أما اذا بلغ ثمانية عشر ذراعا كان هذا نذيرا بحلول كارثة الفيضان ،

---

(١) الأبحر : جمع بحر وهى الترعة الكبيرة أو الرياح الآن .

(٢) ابن مماتى : قوانين الدواوين ص ٢٠٥ — ٢١٦ .

أما اذا نقص الماء عن أربعة عشر ذراعا كان هذا نذيرا بحلول القحط والمجاعات (١) . وجرت العادة أن يذاع ما يبشر به المقياس على الناس فيخرج المنادى الى طرقات القاهرة وسائر مدن مصر . ولكن الخليفة المعز لدين الله أمر بكتمان أمر المقياس لأن الناس اذا شعروا بانخفاض النيل تسرب القلق الى نفوسهم فأخفوا الغلال وامتنعوا عن بيعها حتى يرتفع السعر فيحدث الغلاء . واذا أحس الناس بزيادة النيل هبطت الأسعار هبوطا فاحشا ، وأصيب كبار التجار بخسارة فادحة لذلك كان فى الكتمان عن عامة النـــــاس فائدة محققة (٢) .

وتمتعت مصر فى عهد الخليفة العزيز بالله بفترة رخاء اقتصادى كبير فقد كان فيضان النيل فى عصره عاليا عن معدله فلم تحدث كوارث الفيضان كما لم يحدث ما حدث فى عهـــد خلفائه وخاصة المستنصر من انخفاض النيل وما تبعه من قحط ومجاعات وأوبئة وكان فى مصر فى عهد العزيز مخزن كبير للحبوب كان قد أنشأه جوهر الصقلى عند قدومه الى مصر ، يكفى لتخزين حاجة مصر من الحبوب حتى لا تتأثر بانخفاض النيل . وعهد العزيز الى المحتسب برقابة هذا المخزن ، كما كان للمحتسب أن يمنع احتكار بيع الحبوب ويقوم بتقدير أثمانها وكان يعاقب أصحاب المطاحن الذين يخالفون أوامره بالجلد .

وشعر الفلاح المصرى فى عهد العزيز بالله بالأمان والاطمئنان فقد كانت هناك ادارة حكومية منظمة تشرف على شئون الزراعة وتقوم بمشاريع الرى وتنظم شئون الضرائب وتحدد العلاقات بين ملاك الأراضى والمستأجرين من الفلاحين ، فلم تترك حكومة العزيز تقدير الخراج للمقطعين بل حددت مقداره . كما لم يحدث فى

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ٢ ص ٣٣٦ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٧٣ .

عهد العزيز بالله أن انتزعت الحكومة الفاطمية أرضا من أيدى أصحابها . ووضع العزيز الأمان الذى منحه جوهر الصقلى للمصريين موضع التنفيذ ، فقد أمنهم على أموالهم وضياعهم (١) .

وعمل العزيز بالله على تنمية الانتاج الزراعى ، ولذا عمل على توزيع الأراضى المملوكة للدولة على بعض أعوانه ، فأصبحت هذه الأراضى الحكومية ملكا للمقطعين . وكان العزيز يمنح بعض الأراضى لبعض الفلاحين مقابل دفع مبلغ معين من المال فتصبح هذه الأراضى اقطاع استغلال . وتمتع بهذا الحق أيضا جنود الجيش الفاطمى .

وفى عهد العزيز بالله كان القمح هو المحصول الرئيسى فى الأراضى الزراعية بمصر ، فقد كان القمح الغذاء الرئيسى للمصريين ، ولم تكن الذرة معروفة بعد فى مصر . وزرع المصريون الكتان فى الأراضى المنخفضة التى تظل مغمورة بالمياه فترة طويلة ، وانتشرت زراعة الكتان فى أراضى الدلتا والفيوم . كما توسع المصريون فى زراعة قصب السكر ، ولمس ناصر خسرو هذا التوسع عند زيارته لمصر . ومن أشهر المحاصيل المصرية الشعير والفول والحمص والعدس والبرسيم والبصل والثوم والترمس والسمسم والخضروات المختلفة .

وقام المصريون أيضا بزراعة أنواع مختلفة من الفاكهة مثل الكروم التى كانت تزرع فى أراضى مريوط والجيزة والفيوم وقليوب وغيرها من أراضى الدلتا والصعيد كما اتسعت مساحات الأراضى المزروعة بالنخيل وخاصة على ضفاف وادى النيل فى الصعيد ، وبلغ انتاج مدينة اسنا من التمر أكثر من أربعين ألف أردب سنويا وبلغ انتاج أسوان من البلح ستة وثلاثين ألف أردب سنويا .

---

(١) انظر نص عهد جوهر فى كتاب اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١٥١ .

وكان اهتمام الخليفة العزيز بالله بانشاء أسطول فاطمى قوى أثره فى اهتمامه بزراعة أشجار الغابات لتوفير حاجيات الأسطول . وكانت أبرز مناطق هذه الأشجار البهنسا وأسيوط والأشمونين وقوص وأخميم . واهتم الفلاح المصرى بتربية الحيوانات والدواجن وتنمية الثروة الحيوانية . وكان الفلاح حرا ، غير رقيق يتنقل من أرض لأخرى باختياره وحسب رغبته .

تقدم الصناعة المصرية :

تطورت الصناعة فى العصر الفاطمى عامة ، وفى عصر الخليفة العزيز بالله خاصة وكان مما ساعد على تقدمها استقرار الأحوال الداخلية فى البلاد فى عهد العزيز فضلا عن حياة الترف والبذخ التى سادت المجتمع فى معظم مدن مصر وخاصة القاهرة والفسطاط وكان لهذه الحياة أثرها فى تطور الصناعات ولم تعد المصانع قاصرة على مد الجيش والأسطول الفاطمى بالسلاح والعتاد الحربى لطوائف الجند بل أنتجت المصانع كثيرا من المصنوعات الغالية والكمالية وأدوات الترف مما احتاجه الخليفة ووزراؤه ورجال الدولة وعامة الجمهور المصرى .

ازدانت معظم المصنوعات الفاطمية بصور آدمية وحيوانية كثيرة مما كان مكروها عند أهل السنة الذين كرهوا تصوير الكائنات الحية . بينما لم يمنع فقهاء الشيعة رسمها وأصبحت المصنوعات الفاطمية فى هذه الناحية تحاكى الفنون الايرانية .

أصبحت صناعة النسيج فى مقدمة المصنوعات المصرية فى عصر العزيز بالله نتيجة للاتساع فى زراعة الكتان وأصبحت دمياط وتنيس وشطا أبرز مراكز صناعة الكتان . ومن أشهر المنسوجات الكتانية المصرية العمائم المذهبة التى كانت غطاء الرأس . كما اشتهرت مصر بالمنسوجات الصوفية وخاصة فى بلدة (القيس) وطحا ، ولقيت هذه المنسوجات الصوفية رواجا كبيرا وشهرة عظيمة فى جميع

بلاد العالم وخاصة بلاد الفرس ، فكان الفرس يطلقون على الانتاج الفاطمى اسم (المصرى) .

وازدهرت صناعة المنسوجات الحريرية فى عهد الخليفة العزيز بالله بفضل الجهود التى بذلها أبوه الخليفة المعز ، فقد أنشأ المعز دار الكسوة التى كانت تفصل الثياب لموظفى الدولة على اختلاف مراتبهم كما كان يصنع بهذه الدار أيضا كسوة الكعبة والخلع التى يمنحها الخلفاء للوزراء والأمراء وكبار رجال الدولة فى عيد الفطر حتى سمى هذا العيد بعيد الحلل . وكانت هذه المنسوجات الحريرية تبين مقدار مهارة المصريين وتفوقهم فى هذه الصناعة .

وكانت الكسوة التى أمر الخليفة المعز لدين الله بنسجها للكعبة مربعة الشكل ، مصنوعة من ديباج أحمر سعتها مائة وأربعون شبرا وفى حافاتها اثنا عشر هلالا ذهبيا ، فى كل هلال أترجة ذهبية . وكانت مرصعة بالياقوت الأحمر والأصفر والأزرق ونقشت فى حافاتها الآيات التى وردت فى الحج بحروف من الزمرد الأخضر وزينت هذه الكتابة بالجواهر الثمينة وعطرت هذه الكسوة بمسحوق المسك ووضعت فى القصر حتى يشاهدها الناس (١) . وسار الخليفة العزيز بالله على سيرة أبيه فى نسج كسوة سنوية للكعبة .

كما أمر الخليفة المعز سنة ٣٥٣ هـ بعمل خريطة من الحرير الأزرق المنسوج بالذهب نقش عليها بالذهب كافة أقطار العالم بما فيها من جبال وبحار وأنهار ومدن ، وتبرز موقع مكة والمدينة .

وتميزت المنسوجات الفاطمية بزخارف قوامها أشرطة من الكتابة توازيها أشرطة أخرى بها جامات بيضاوية الشكل يتداخل بعضها فى بعض وعليها رسم حيوان أو طائر أو ورود (٢) .

---

(١) ابن ميسر : تاريخ مصر ص ٤٤ .

(٢) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٥٠ وما بعدها .

اهتم الخليفة العزيز بالله بصناعة بناء السفن فأنشأ دارا لصناعة السفن بالمقس وبنى فيها ستمائة ، واشتهرت جزيرة الروضة بصناعة السفن الحربية الى جانب دور صناعة السفن فى الاسكندرية ودمياط . واهتم العزيز أيضا بزراعة أشجار الغابات فى مصر واستيراد الأخشاب من لبنان . وفى آخر عهد العزيز بالله (سنة ٣٨٦ هـ) احترقت بعض سفن الأسطول فأمر عيسى ابن نسطورس بتوفير الأخشاب وطلب الصناع ، ونجح عيسى فى أن يبنى فى شهر واحد مركبين كبيرين وبعد شهرين أنزل عيسى الى الماء أربع مراكب أخرى .

وتقدمت صناعة الزجاج والخزف وأصبحت الفسطاط من أبرز مراكز صناعة الزجاج كما ازدهرت صناعة الخزف حتى استعمله البقالون بدلا من الورق . وكان لاهتمام الخليفة العزيز بالله بتطوير بناء القاهرة ولقيامه بكثير من المبانى والمنشآت وخاصة المساجد والقصور أثر فى ازدهار صناعة البناء . وأدى انتشار الترف والرخاء فى عهد العزيز وكثرة انشاء القصور الى تقدم كثير من الصناعات مثل صناعات المعادن والعاج والفسيفساء ، وصناعة الذهب والفضة اللتين استخدمهما الصناع فى صنع الحلى والسروج والسيوف وتذهيب المصاحف ووشى الملابس الفاخرة . كما ازدهرت صناعة الأثاث وصناعة الحفر على الخشب وتجلى فى التحف المصنوعة من الخشب فى عصرى المعز والعزيز أثر الانتقال من الأساليب الفنية فى العهدين الطولونى والأخشيدى الى الأساليب الفاطمية الراقية .

وشهد عهد الخليفة العزيز بالله نهضة علمية كبرى ساهمت فى تقدم الصناعات فقد حول العزيز الجامع الأزهر الى جامعة علمية يقصدها آلاف الطلاب وكان العزيز يمدهم بما يحتاجونه من أقلام وورق ومحابر . ورتب وزيره يعقوب بن كلس قوما يجلسون فى داره لنسخ القرآن الكريم وكتب الحديث والفقه والأدب فتقدمت

صناعة الورق ، وكانت الفسطاط أبرز مراكز هذه الصناعة . وكان يصنع الورق غالبا من نبات البردى ، كما استوردوا الورق أحيانا من بلاد الصين ، وصنعوا الورق أيضا من الكتان المضروب بالقطن أو من الخرق البالية . وصحب انتشار صناعة الورق تقدم فى تجليد الكتب ، واستخدم الصناع جلود العجول ، كما استخدموا الحرير والديباج والأطلس فى تجليد المصاحف كما تقدم فن الخط والتذهيب .

ولما كان قصب السكر من أبرز محصولات مصر فى عهد العزيز بالله ، فقد انتشرت مصانع السكر فى مصر وخاصة فى الفسطاط والمنيا والفيوم وأسيوط وقفط وسمنود وغيرها ، وبلغت مصانع السكر فى الفسطاط وحدها ٥٨ مصنعا ، وكانت الدولة الفاطمية تحتكر هذه الصناعة فأنشأت المعاصر السلطانية . وكانت الدولة الفاطمية تجبى مقادير طائلة من خراج الأرض المزروعة قصبا .

كما تقدمت صناعة الزيت الذى كان يستخدم فى الطعام والوقود فاستخرج المصريون الزيت من الزيتون والسمسم والفجل والخس . وكانت الفيوم والفسطاط والبهنسا أبرز مراكز هذه الصناعة كما اهتم المصريون بصناعة الشمع فى الاسكندرية وصناعة الصابون فى الفسطاط (١) .

ازدهار التجارة الفاطمية :

ازداد النشاط التجارى فى الفسطاط والقاهرة حيث يقيم الأعيان وأصحاب الاقطاعات ويكثر توافد الناس . وكانت الفسطاط من أهم مراكز مصر التجارية لموقعها على النيل وتوسطها بين الوجهين القبلى والبحرى واتصالها بكافة البلاد المصرية عن طريق

---

(١) ابن ميسر ، تاريخ مصر ص ٤٤ .

النيل وفضلا عن ذلك فانه كان يخرج منها طرق برية تسير فيها القوافل متجهة نحو الحجاز وبلاد الشام .

ولم يؤثر انشاء القاهرة على مركز الفسطاط التجارى لأن المدينة الجديدة ظلت أشبه بمعسكر يقيم فيه الجنود والموظفون ، كما أن موقعها بالنسبة للنيل كان دون موقع الفسطاط مما جعل الأسعار فى الفسطاط أقل منها فى حاضرة الخلافة الفاطمية . وكانت الفسطاط تتمتع برخاء عظيم فى العصر الفاطمى فكثرت بها المتاجر والأسواق كما كان يأتى اليها كثير من المراكب (١) .

اهتم الفاطميون بطرق المواصلات التجارية ، وكان النيل يمثل الشريان الرئيسى للمواصلات فى مصر وحملت السفن النهرية المحصولات الزراعية والمصنوعات المختلفة وأصبحت الفسطاط ميناء نهريا كبيرا واهتم الخليفة العزيز بالله بانشاء كثير من السفن النهرية لتنمية التجارة الداخلية . وأصبح خليج أمير المؤمنين يربط بين نهر النيل والبحر الأحمر والموانىء القائمة عليه مثل مدينة القلزم ، وكانت مصر تمد الجزيرة العربية بحاجتها من الانتاج الزراعى والصناعى ، كما استقبلت القلزم السفن القادمة من الاقليم الموسمى بجنوب آسيا ، والتى كانت تحمل الحرير والبخور والتوابل والنيلة .

واهتم الخليفة العزيز بالله بطرق التجارة البرية وقد شهدنا اهتمامه الكبير بطرق البريد ، وأصبحت هذه الطرق تستخدم كطرق للقوافل التجارية وقوافل الحجاج أيضا .

وكانت للتجارة الداخلية مراكز هامة مثل مدينة الفرما التى كانت تعتبر مدخل مصر من الشمال الشرقى وقد اشتهرت أيضا بمصائد الأسماك . وأصبحت بلبيس مركزا لتجارة الغلال وكانت

---

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٥٠ وما بعدها .

تخرج منها قوافل تحمل ما تحتاجه بلاد الحجاز من حبوب ودقيق .
وكانت المحلة الكبيرة مركزا لتجارة المنسوجات والزيوت .
وأصبحت الاسكندرية مركزا للتجارة الداخلية والخارجية على
السواء واشتهرت بتجارة الزيوت والصابون .

وأصبحت دمياط من أبرز الموانى التجارية فى مصر بل الميناء
الوحيد فى الجزء الشرقى من البحر المتوسط . وزاد من شهرة
دمياط قيام دار الصناعة التى تقوم بصناعة السفن فيها .
كما أصبحت دمياط أيضا من مراكز صناعة المنسوجات نتيجة وفرة
الكتان فى المدن والقرى المجاورة لها .

ومن مراكز التجارة الفاطمية مدينة عيذاب التى أصبحت
تنافس ميناء القصير فى تجارة البحر الأحمر وتخرج منها قوافل
الحجاج واشتهر أهالى عيذاب البجاة بالأمانة والمسالمة . وكانت
تنيس من أهم الثغور الواقعة بين النيل والبحر المتوسط ، وتستقبل
تجارة الشرق والغرب واشتهرت بتجارة السمك وصناعة الثياب
الملونة . كما كانت أسوان مركزا لتجارة النوبة والسودان .

احتلت التجارة الفاطمية المكانة الأولى فى التجارة العالمية ،
وأصبحت الاسكندرية وبغداد مقياسا لأسعار البضائع العالمية فى
ذلك الوقت ، ومن أبرز مراكز التجارة بين الشرق والغرب ،
واستردت الاسكندرية فى العصر الفاطمى مركزها الدولى من
جديد (١) .

وأصبحت الفرما من المراكز الهامة للتجارة بين الشرق والغرب
حيث تنقل منها ومن الاسكندرية التجارة الآتية من أوروبا الى البحر
الأحمر وكذلك التجارة الآتية من الشرق والغرب . وكانت السفن
بعد اقلاعها من الاسكندرية ترسو فى موانى برقة ثم طرابلس

---

(1) Heid : Hist. du Commerce, P.58

ثم المهدية . وأصبحت جدة الميناء الذى يستقبل الحجاج ويستورد حاجياتهم . كما اشتهرت عدن بأثرها فى التجارة العالمية لوقوعها عند مدخل البحر الأحمر ولقربها من الاقليم الموسمى فى جنوب آسيا .

اتسع نطاق التجارة الخارجية الفاطمية مع الأقطار الأسيوية والأوربية . فكانت مصر تستورد محصولات الهند والصين وما تحتاجه من مواد خام مثل الحديد والخشب . بل كانت مصر تعمل أحيانا كوسيطة تجارية بين أوروبا وآسيا . وأصبحت الاسكندرية مركزا تجاريا كبيرا تنقل منها البضائع الأسيوية الى أوروبا ، وتقدم اليها السفن الأوربية محملة بالسلع اللازمة للانتاج الصناعى فى مصر . وكانت مصر تصدر الى بلدان أوربا النطرون والشب والمنسوجات المختلفة (١) .

وكان لانتشار الرخاء فى عصر الخليفة العزيز بالله أثره فى استيراد الكماليات ومواد الترف والأبهة مثل الجواهر وأدوات الزينة والطرف والسيوف المطعمة والسروج المذهبة والملابس المحلاة بالجواهر . كما استوردت مصر اللؤلؤ من مصايده بالخليج الفارسى وسواحل عمان وحفلت صور العزيز بالله بالأسمطة والولائم فاحتاجوا الى استيراد التوابل والعطور من أسواق الشرق الأقصى لكفاية حاجة مصر وتصدير الباقى الى دول أوروبا . وكان قصر الخليفة يستهلك فى كل شهر ثلاثين مثقالا من الند و ١٥٠ درهما من العود الصينى و ١٥ درهما من الكافور وعشرة مثاقيل من العنبر الخام و ٢٠ درهما من الزعفران و ٣٠ رطلا من ماء الورد . كما نمت تجارة الرقيق ، وخاصة الرقيق المجاوب من السودان ، فقد كان لست الملك ثمانمائة جارية (٢) واستوردت مصر

---

(١) البراوى : حالة مصر الاقتصادية فى عهد الفاطميين ص ٢٤٣ .
(٢) ابن ميسر : أخبار مصر ص ٥٨ .

الحرير من صقلية والحديد من ايطاليا وخشب الساج من الملايو والفطرة (الجوز واللوز والفستق .. الخ) من بلاد الشام والمغرب والهند ، والفاكهة والزيت من بلاد المغرب .

وتوثقت الصلات التجارية بين مصر والمدن الايطالية وخاصة جنوة والبندقية ، فكانت سفن البندقية تنقل الخشب والحديد الى الموانى المصرية . وكانت المنسوجات المصرية تلقى اقبالا ورواجا فى ايطاليا وكل أقطار أوروبا . وكان أهالى مالفى يعتمدون على الصناع المصريين فى تزيين قصورهم بالفسيفساء . وكان لأهالى مالفى عدد كبير من الفنادق فى الاسكندرية . ونشدت جنوة صداقة مصر لتأمين حجاجهم الذين يحجون الى بيت المقدس .

وعلى الرغم من الخلافات السياسية بين مصر والدولة البيزنطية ، الا أنه قامت بينهما علاقات تجارية فاستورد البيزنطيون المنسوجات المصرية من مصانع دمياط وتنيس واستوردت مصر الغلال من الدولة البيزنطية .

كما توثقت الصلات التجارية بين مصر وجزيرة صقلية فقد ظلت صقلية تابعة للدولة الفاطمية زمنا طويلا ، وكان توسط صقلية للبحر المتوسط أثره فى جعلها مركزا تجاريا ممتازا . ورغم استيلاء البيزنطيين على جزيرة قبرص ، فقد كانت السفن المصرية تصل اليها حاملة مختلف المصنوعات المصرية .

واستمرت العلاقات التجارية بين مصر وبلاد المغرب على الرغم من انتقال الدولة الفاطمية الى مصر فى عصر المعز لدين الله كما كانت مصر على علاقات تجارية وثيقة ببرقة والسودان وغانا وحوض السنغال والنيجر وبلاد الأندلس . ورغم عداء الفاطميين للعباسيين فقد استمرت الصلات التجارية بين مصر والعراق وايران . وعقد الفاطميون كثيرا من المعاهدات التجارية مع ملوك النوبة .

واهتمت حكومة الخليفة العزيز بالله بتوفير وسائل الراحة والأمان للتجار الأجانب . فأقامت الوكالات ، وتشبه الفنادق اليوم .

كما اهتمت بالأسواق واقامة الحوانيت والمخازن والمساكن والخدمات كما كانت الحكومة الفاطمية تراقب العمليات التجارية وتحدد الأسعار وتمنع الغش والتدليس ، وتحرس طرق القوافل .

وكانت الرسوم المفروضة على التجارة الخارجية تختلف حسب جنسية التجار وحسب أنواع التجارة .

اهتمام العزيز بالله بالعلم والثقافة :

تميز العالم الاسلامى فى العهد الذى عاصره الخليفة العزيز بالله بنهضة ثقافية اسلامية عظيمة بفضل الترجمة من اللغات الأجنبية وخاصة من اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية ، وبفضل نضوج ملكات المسلمين فى البحث والتأليف ، وتشجيع الخلفاء والأمراء لرجال العلم والأدب ، وانتشار العمران واتساع أفق الفكر الاسلامى بارتحال المسلمين .

وكان من أثر قيام كثير من الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية أن نشطت الحركة الفكرية ونهضت الثقافة . وزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم . أضف الى ذلك ظهور كثير من الفرق التى اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق مبادئها السياسية والحربية . وكان للجدل والنقاش اللذين قاما بين الفرق الشيعية والسنية أثرهما الواضح فى النهضة العلمية التى تميز بها العصر الفاطمى (١) .

اهتم الخليفتان المعز والعزيز بالله بالعمل على نشر الثقافة العلمية والأدبية فضلا عن الثقافة المذهبية التى تتصل بالدعوة الاسماعيلية كالفقه والتفسير . وكان للجامع الأزهر أثر كبير فى النهضة الثقافية فى مصر .

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٢٠ .

تحدث المؤرخ العـــربى المعاصر الدكتور حتى (١) عن الطابع الثقافى فى مصر فى العصر الفاطمى فقال : « مصر هى البلاد الوحيدة من بين كل الأملاك الفاطمية التى ترك فيها الخلفاء الفاطميون أثرا طبعها بطابعهم الثقافى ذى المميزات الخاصة . ويمكننا فى التاريخ الثقافى لمصر أن نصف الحكم الفاطمى والحكمين الاخشـــيدى والطولونى اللذين سبقاه بأنها كانت عصورا يغلب عليها الأثر العربى الفارسى على عكس عصور الأيوبيين والمماليك التى كان يغلب عليها الأثر الفارسى التركى . أما الفترة السابقة للحكم الطولونى فيمكن أن نصفها بأنها كانت فترة عربية خالصة » .

شهد عهد العزيز بالله نهضة ثقافية وعلمية كبيرة ، فقد كان العزيز نفسه شاعرا ومحبا للعلوم وحمل وزيره يعقوب بن كلس لواء هذه النهضة الثقافية فقد جلس بالجامع الأزهر وقرأ عـلى الناس رسالة وضعها فى الفقه الشيعى على المذهب الاسـماعيلى وتسمى (الرسالة الوزيرية) تضمنت ما سمعه فى ذلك من كل من الخليفة المعز والخليفة العزيز . وكان على القضاة أن يعتمدوا على هذا الكتاب فيما يصدرونه من أحكام فى محاكمهم التى كانت تعقد عادة فى المساجد ، كما كان على الطلبة والأساتذة أن يتدارسـوه فيما بينهم .

وكان يفد الى سماع ابن كلس الفقهاء والقضاة وأكابر رجـــال الدولة . وكان يعقد مجلسه مرة فى الجامع الأزهر ومرة أخـرى فى قصره . حيث يقرأ مؤلفاته على أهل العلم . وكان الشـــعراء يتقدمون فى آخر الاجتماع فينشدون مدائحهم .

وجمع ابن كلس فى قصره عددا كبيرا من الفقهاء والكتاب فكان بعضهم يشتغل بكتابة نسخ من القرآن الكريم وبعضهم ينسخ كتب الحديث والفقه والأدب وبعض كتب العلوم وخاصة كتب الطب .

---

(١) حتى : تاريخ العرب ص ٨١٠ .

وكان هؤلاء النساخ يراجعون ما يكتبونه ويضيفون اليه علامات الشكل والنقط . وكان من بين الفقهـــاء الذين يحضرون مجلس ابن كلس رجل أسمه الحسين بن عبد الرحيم يلقب بالزلازلى ، وهو صاحب كتاب الأسجاع . ومن الشخصيات التى اشتهرت فى عهد العزيز ، محمد التميمى الطبيب الذى ولد فى بيت المقدس ورحل الى مصر .

أسس ابن كلس مجمعا علميا كان ينفق عليه ألف دينار شهريا وجعل فى قصره جماعة من القراء والأئمة وعين لهم الرواتب الخاصة ووكل اليهم اقامة الصلاة فى المسجد الذى بناه فى قصره .

كان معظم أهل العلم فى ذلك الوقت من طبقة الفقهاء التى كانت تضم القضاة وأصبحت المساجد مراكز ثقافية ويقصـــدها العلماء والأدباء . وخاصـــــة فقهاء المذهب الشيعى الذين كانوا يلقـــون محاضراتهم فى أصول المذهب الاسماعيلى وكان بعض الوزراء والقضاة يضعون الكتب حول هذا المذهب ويقوم الأساتذة بتدريسها لعامة الناس .

وفى رمضان سنة ٣٦٩ هـ دعا ابن كلس الناس على اختـــلاف مراتبهم الى اجتماع وقرأ عليهم بعض مؤلفاته . وكان لابن كلس أيضا الفضل فى تنمية مكتبة قصر الخليفة واضافة كثير من الكتب اليها حتى اذا توفى هذا الوزير نقلت مكتبته الخاصة الى مكتبة قصر العزيز .

وفى سنة ٣٧٨ هـ أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية بعد أن كان مقصوراً على نشر الدعوة الفاطمية واستأذن الوزير من العزيز فى أن يعين بالأزهر بعض الفقهاء للقراءة والدرس على أن يعقدوا مجالسهم بهذا الجامع فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ورحب العـــزيز بهذا الاقتراح ، ورتب لهؤلاء الفقهاء رواتب شهرية وأنشأ لهم مساكن خاصة بهم بجوار الجامع الأزهر .

وأصبح الأزهر مقصدا لطلاب العلم من كل أرجـــاء العـــالم الاسلامى ، عربا وغير عرب ، وعمل الخليفة العزيز بالله على تشجيعهم بتوفير وسائل الحياة ، فكان يقدم اليهم المسكن والمأكل مجانا . وصار هؤلاء الطلبة يدرسون التوحيد والفقه واللغة العربية والرياضة والمنطق والنحو والبيان والطب وغيرها من العلوم . وظل الأزهـر أيضا مركز الفقه الفاطمى الى أن بنى جامع الحاكم بأمر الله فانتقل اليه الفقهاء لالقاء دروسهم .

تحدث المؤرخ (ستانلى لينبول) (١) عن أثر الجامع الأزهر فى انتشار الثقافة فقال : كانت الثقافة الأزهرية مثالا طيبا للتعليم الحر الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغـــة أو الطبقة . وليس من السهل أن ينس المرء منظر الطلاب وقد التفوا حول أستاذهم وأخذوا ينصتون اليه كأن على رءوســـهم الطير أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من أستاذهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية فى العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة فى العلم التى لا تتحمس فى طلبه بقصد الحصول على الجوائز أو اجتياز الامتحانات وذلك ما تفتقر اليه الجامعات الغربية .

واهتم الخليفة العـــزيز بالله بالمكتبات وكان فى قصره الشرقى مكتبة كبيرة تحفل بآلاف الكتب . فقد حمل أبوه المعز لدين الله معه عند قدومه الى مصر من بلاد المغرب عددا كبيرا من الكتب أصبحت نواة مكتبة القصر ، ثم عمل العزيز بالله على تنميتها وقام وزيره يعقوب بن كلس بدور كبير فى تطوير هذه المكتبة وبعد وفاة هذا الوزير نقـــل الخليفة مكتبته كما ذكرنا من قصره الى قصر الخليفة .

---

(١) سيرة القاهرة ص ١٢١ .

وشجع الخليفة العزيز بالله تجار الكتب على جلب الكتب النادرة ليضمها الى مكتبة القصر . وقد روى المقريزى (١) أن رجلا قدم على العزيز بالله بنسخة من كتاب الطبرى فاشتراها منه بمائة دينار . وكان بمكتبة العزيز أكثر من عشرين نسخة من هذا الكتاب منها نسخة بخط يده . كما كان بهذه المكتبة أيضا أكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد . وكان العزيز يتردد كثيرا على المكتبة ليتفقدها ويرى ما أضيف اليها من كتب جديدة وليشير الى أمناء المكتبة بما يقترح شراؤه من كتب ، أو ليختار بعض الكتب التى يود قراءتها فى مجالسه الخاصة (٢) . وتنافس الخلفاء الفاطميون والخلفاء العباسيون والأمويون بالأندلس على شراء واقتناء الكتب النادرة فكان الخلفاء الفاطميون يحاولون شراء جميع نسخ الكتب حتى لا يقتنيها الخلفاء الآخرون . وكان بمكتبة القصر أربعون خزانة كتب وتحتوى كل خزانة على عدة رفوف . والرفوف مقطعة بحواجز تحوى كتبا فى مختلف أنواع العلوم والآداب والفنون .

وسار الخليفة العزيز بالله على سنة أبيه المعز لدين الله فكان يفتح أبواب قصره للعلماء والطلاب وسمح لهم جميعا بالاطلاع على مكتبة القصر كما عقد فى قصره كثيرا من المجالس العلمية والأدبية والمناظرات دعا اليها الفقهاء والعلماء والأدباء مما أدى الى نهضة ثقافية حقيقية .

ومن العلماء الذين نالوا تشجيعا من الخليفة العزيز بالله أبو الحسن على الشابشتى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد دخل فى خدمة الخليفة العزيز فجعله أمينا لمكتبة القصر وأصبح فى مقدمة جلساء الخليفة وندمائه ، وقد وضع كتابه المشهور (الديارات) تحدث فيه عن أديرة مصر والعراق والشام والجزيرة .

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٤٠٨ .
(٢) الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ .

ومن هؤلاء العلماء أيضا أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمى القيروانى الذى تخصص فى علوم اللغة وخاصة النحو . وقد كلفه الخليفة العزيز بالله بأن يؤلف كتابا « يجمع فيه سائر الحروف التى ذكر النحويون أن الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد فى تأليفه الى الحرف الذى جاء لمعنى وأن يجرى ما ألفه عن ذلك على حروف المعجم (١) » وقد ألف القيروانى كتابه فى ألف ورقة ، ومن كتبه أيضا كتاب (التعريض) .

ونبغ فى عهد العزيز بالله كثير من العلماء منهم أبو الحسن على ابن رضوان الطبيب الفيلسوف الذى وضـــع كثيرا من الكتب فى الفلسفة والمنطق وغيرها من علوم الحكمة وزاد عـــدد كتبه على السبعين كتابا ، وأصبح فى عهد العزيز رئيسا للأطباء . ومن الطريف أن الناس فى عهد الفاطميين ، بل والخلفاء أيضا ، كانوا يؤمنون بعلم التنجيم ، وقد رأى على بن رضوان أن طالعه يدل على أنه خلق ليكون طبيبا ولذا اجتهد حتى يحقق ما دله الطالع عليه .

وكان على بن رضوان من المجددين فى صناعته ، ولم يكن عمله مقصورا على النقل والشرح لكتب من جاء قبله من الأطباء مثـــل جالينوس وأبقراط ، بل كانت له ناحية خصـــبة من التفـــكير والابتكار . وكان يدون مشاهداته ويغير ما دلت التجربة عـــلى فساده ، ويظهر ما ظهر له صلاحه . ولم يكن هذا الطبيب جشعا كل همه الكسب من صناعته بل كان طبيبا انسانا يصرف اهتمامه لاسعاف الملهوف ومساعدة الفقير المحتاج وكانت حياته كلها حياة كد وكفاح وعمل متصل (٢) .

وجعل يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله فى قصره مستشفى أمده بعدد من الأطباء يستقبلون المرضى من عامة الشعب يفحصونهم طبيا ويقدمون لهم الدواء مجانا .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٩ .
(٢) حسن ابراهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٠٣ .

ومن المؤرخين المعاصرين للخليفة العـــزيز بالله والذى اهتم بدراسة عصره المؤرخ المصرى ابن زولاق المتوفى ســـنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وأشهر كتبه هو (فضائل مصر وأخبارها وخواصها) ، ومن كتبه أيضا (قضاة مصر) وهو ذيل لكتاب القضاة لأبى عمر الكندى .

ومن الجغرافيين المعاصرين للعزيز بالله شمس الدين أبو عبد الله محمد المعروف بالبشارى المقدسى المتوفى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وكتابه هو (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) .

وفى سنة ٣٧٥ هـ (٩٨٦) كتب المهلبى للخليفة العزيز بالله كتابا فى الطرق والمسالك وهو أول كتاب وصف بلاد السودان وصفا دقيقا وكان علماء الجغرافيا فى القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان الا قليلا جدا . وسمى المهلبى كتابه (العزيزى) نسبة الى الخليفة العزيز بالله . وأصبح هذا الكتاب أهم مصادر الجغرافى ياقوت الحموى عند حديثه عن السودان (١) .

شعراء عصر العزيز بالله :

ظهر فى عهد العزيز بالله كثير من الشعراء فكان العزيز نفسه شاعرا مجيدا كما تميز العـزيز ووزيره يعقوب بن كلس بالكرم والاغداق على الشعراء مما دفعهم الى نظم القصائد العصماء .

ومن الشعراء الذين مدحوا العزيز بالله وهو ولى لعهد أبيـه الشاعر محمد بن هانىء الذى أصبح مثالا يحتذى به سائر الشعراء فى عصر العزيز بالله . وهذا الشاعر عربى من الأزد ، ولد فى اشبيلية فى بلاد الأندلس حيث قضى شبابه المبكر ثم اتصل بالقائد جوهـر الصقلى الذى قدمه للخليفة المعز . واستعد ابن هانىء للرحيل الى مصر ولكن ما كاد يصل الى برقة حتى أدركته الوفاة فى رجب

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ٢ ص ١٠ .

سنة ٣٦٢ هـ وكان المعز يعد ابن هانىء لينافس به الشعراء العباسيين ولذا أبدى المعز ألمه لسماعه نبأ وفاة ابن هانىء فقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك » .

ومن شعراء العزيز بالله أبو عبد الله محمد بن أبى الجرع . ولقد بلغ هذا الشاعر مرة أن الوزير كان يشكو من ألم فى يده فنظم الشاعر قصيدة يظهر فيها ألمه الشديد لمرض الوزير ويصف ما كان لمنح العزيز بالله عليه من أثر وفى ذلك يقول :

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت
رأيت فى كل شىء ذلك الألما

تأمل الملك وانظر فرط علته
من أجله واسأل القرطاس والقلما

وأنشد الشاعر ابن أبى الجرع أيضا :

لولا العزيز وآراء الوزير معا
تحيفتنا خطوب تشعب الأمما

فقل لهذا وهذا أنتما شرف
لا أوهن الله ركنيه ولا انهدما

وللشاعر ابن أبى الجرع قصيدة طريفة نظمها وبعث بها الى أصدقائه ليقدموا على داره ليتناولوا الطعام قبل حلول شهر رمضان ، ومن أبياتها :

شعبان قد صار نضوا ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منا جهلا ولا كان سهوا
فبالمودة الا بكرت للقصف عدوا
حتى نقوم فنرفو ما خرق الدهر رفوا

ثم يعدد ابن أبى الجرع أنواع الطعام التى سيقدمها لضيوفه ومنها جدى مسمن مشوى وبقول ، وقهوة ، ويغريهم بالحضور فيقول أنهم سيستمعون الى أغانى شجية وسيقدم لهم العطور والزهور ثم يحثهم على عدم الاعتذار فيقول :

فما اعتذارك فى أن تغنى زمانك صحوا
وأنت بعد قليل بالصوم والله تطوى

وكان الشعراء يحضرون مجالس ابن كلس العلمية ويختتم هؤلاء الشعراء هذه المجالس بانشاد قصائدهم . وبلغ عدد الشعراء الذين وقفوا على قبر ابن كلس عند وفاته أكثر من مائة شاعر ألقى كل منهم قصيدة رثاء عصماء .

ومن شعراء عصر العزيز بالله الشاعر أبو حامد الانطاكى وكان من أهل أنطاكية بالقرب من مدينة حلب ووصفه الثعالبى (١) . بأنه « نادرة الزمان وجملة الاحسان » وأنه « أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين » وأقام فى مصر زمنا ومدح الخليفة العزيز ووزيره ابن كلس بقصائد كثيرة ومن شعره الذى يمدح به الخليفة ووزيره (٢) :

لم يدع للعزيز فى سائر الأ
رض عدوا الا وأخمد ناره
كل يوم له على نوب الدهـ
ـر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذويد شأنها الفرار من البخـ
ـل وفى حومة الندى كراره
قد أقلت عن العزيز عداه
بالعطايا وكثرت أنصاره

---

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٣٨ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨ .

إمبراطورية العزيز بالله

الصراع بين العزيز والقرامطة حول الشام :

القرامطة طائفة سياسية اتخذت الدعوة الى امامة اسماعيل ابن جعفر بن الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها . وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى أحد دعاتها وهو حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط ويقال انه سمى قرمط لقصر قامته ورجليه .

وكان القرامطة من الشيعة الاسماعيلية وبدأوا سياستهم بموالاة الفاطميين باعتبارهم زعماء جميع طوائف الاسماعيلية . ثم انقسم القرامطة الى فريقين : أولهما يميل الى الفاطميين ويتطلع فى نفس الوقت الى الحكم ويعرفون بالعقدانية ويرون أن تنضوى طائفة القرامطة فى سياستها الخارجية والمذهبية تحت لواء الفاطميين . أما الفريق الآخر فيتألف من الطبقة العليا الحاكمة ويرون الاحتفاظ برياسة دولتهم القرمطية الاسماعيلية والاتجاه بسياستهم الى مصالحهم الخاصة ولا يرون بأسا من مخالفة العباسيين السنيين وزاد عداؤهم للفاطميين على مر السنين . وكان لمحاولة الخليفة المعز لدين الله التدخل فى شئون القرامطة الداخلية أثره فى ازدياد العداء بين القرامطة والفاطميين . كما كان لايواء المعز لكثير من زعماء الشام الفارين من وجه القرامطة أثره فى اثارة سخطهم كما عملت الدولة العباسية على توسيع هوة الخلاف بين الفاطميين والقرامطة .

عمل الفاطميون بعد استقرار دولتهم فى مصر على مد نفوذهم الى بلاد الشام من أجل هدم عدوتهم اللدودة الدولة العباسية السنية ، وحتى تصبح للدولة الفاطمية الزعامة فى العالم الاسلامى .

ورأى الفاطميون أيضا أن تكون بلاد الشام خط الدفاع الأول عن مصر ، كما رأوا ان فى سيطرتهم على بلاد الشام تحقيقا لسياستهم بجعل البحر المتوسط بحيرة فاطمية . كما أن استيلاء الفاطميين على بلاد الشام يمنع تقدم جيوش الدولة البيزنطية جنوبا الى مصر ، كما يرضي شعور المسلمين الذين يطالبون بالجهاد وقتال الروم البيزنطيين ، وكانت بلاد الشام تابعة للدولة الاخشيدية وهى الدولة التى قضى الفاطميون عليها وورثوا ممتلكاتها ، ولذا كان طبيعيا أن يمد الفاطميون نفوذهم على الشام بعد استقرار حكمهم فى مصر .

وكان القرامطة قد مدوا نفوذهم الى بلاد الشام وأخذوا يناوئون سادتهم الفاطميين ، وخشى الخليفة المعز من زوال نفوذه عليهم وازدياد نفوذ القرامطة وأبدى ألمه لقيام القرامطة باحتلال دمشق فى سنة ٣٥٧ هـ . بعد أن كان القرامطة لا يحاربون الا بوحى من الفاطميين . ولذا اعتبر الفاطميون فتح بلاد الشام نوعا من التحدى للقرامطة والقضاء على نفوذهم ، كما رغب الفاطميون فى أن يحققوا للمصريين خاصة وللمسلمين عامة ما جهروا به من محاولة للقضاء على الثوار الدينيين كالقرامطة (١) .

ولهذه الأسباب كلها بعث جوهر الصقلى حملة عسكرية الى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح الكتامى فى أول سنة ٣٥٩ هـ (٢) ونجح ابن فلاح فى الاستيلاء على معظم مدن فلسطين والشام وهزم القوات الاخشيدية ثم فتح دمشق بعد مقاومة يسيرة وحذف اسم الخليفة العباسى من الخطبة ودعا للخليفة الفاطمى . وأدى فتح الفاطميين لدمشق الى اصطدامهم بالقرامطة فقد ظلت دمشق تدفع للقرامطة فترة طويلة الجزية وحاول القرامطة محالفة الخليفة العباسى المطيع للوقوف معا فى وجه الفاطميين ولكن المطيع

---

(١) حسن ابراهيم وطه شرف : المعز لدين الله ص ٩٢ .
(٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ١٦٨ .

لم يرحب بمحالفتهم فقد كان يرى أن القرامطة ملاحدة خارجون على الاسلام ، فقد ساءه اعتداء القرامطة على قوافل الحجاج (١) .

ودارت حرب عنيفة بين جيش ابن فلاح الفاطمى وجيش الحسن القرمطى الملقب بالأعصم ولحقت الهزيمة بابن فلاح ولقى حتفه وتقدم الأعصم نحو دمشق ففتحها ولعن الخليفة المعز من فوق منبر المسجد الأموى وعلق المؤرخ (أوليرى دى ساس) (٢) على ذلك فقال : يؤمن القرامطة بنظرية الحق الالهى للامام الفاطمى مما يجعلنى أعجب للعن الخليفة الفاطمى ، وقد نرجع هذا الى أن غالبية أهالى دمشق كانوا من غلاة السنيين أعداء الشيعة والقرامطة على السواء والى أن القرامطة أصبحوا لا يهتمون بشرف الانتماء الى أسرة على بن أبى طالب الى جانب عدم اهتمامهم بالعلاقات المذهبية .

وزحف الأعصم القرمطى الى مصر ووصل الى عين شمس قرب القاهرة وحفر جوهر حول القاهرة خندقا عميقا أقام عليه بابين من الحديد . وتطوع كثير من المصريين لصد خطر القرامطة وأرغمهم جوهر على الانسحاب الى القلزم (السويس الحالية) (٣) وبعث الخليفة المعز لدين الله من المغرب جيشا لتدعيم جيش جوهر الصقلى فاضطر القرامطة الى الانسحاب وعجل المعز بالقدوم الى مصر .

وبعد قدوم المعز الى مصر بعث برسالة الى الأعصم يهدده فيه ويصفه ببعض النعوت منها : « الغادر الخائن الناكث الحائد عن هدى آبائه وأجداده ، المنسلخ عن دين أسلافه وأنداده والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة .. » وأبدى المعز استياءه من التقارب بين القرامطة والعباسيين وندد المعز باقدام

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٧٤ .

(٢) Oleary : A Short Hist, of the Fatimid, Khali fate, P;190,

(٣) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر جـ ص ١١٥ — ١١٨ .

الأعصم على فتح دمشق وقتل قائده ابن فلاح ، ثم طلب المعز من الأعصم أن يسلم نفسه هو وأتباعه من القرامطة (١) .

وأبدى الأعصم عدم اكتراث برسالة المعز ورد برسالة موجزة قال فيها : « وصل كتـابك الذى قل تحصيله وكثر تفصيله ونحن سائرون اليك على أثره والسلام » (٢) ـ وعاود الأعصم غزو مصر ووصل الى عين شمس فى ربيع الثانى سنة ٣٦٣ هـ ونجح المعز فى استمالة الطائيين أبرز جند القرامطة بالأموال مما أدى الى هزيمة القرامطة وانسحابهم ثم نجح المعز فى استعادة النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام سنة ٣٦٣ هـ منتهزا فرصة النزاع بين أمراء القرامطة .

وفى أواخر عهد المعز لدين الله لم يستقر الحـكم الفاطمى فى دمشق وثارت الفتنة بين أهالى دمشق والجند الفاطميين المغاربة ثم مات المعز تاركا أمر الشام فى يد ابنه الخليفة العزيز بالله .

وفى مطلع خلافة العزيز بالله تغيرت الأوضاع فى بلاد الشام فقد أدت الاضطرابات التى سادت مدينة دمشق الى اضعاف الحـكم الفاطمى فيها . وقد مهدت هذه الحالة السبيل لدخول فريق من الأتراك بزعامة أفتكين بلاد الشام واستقرارهم فيها . وبذلك واجه الفاطميون عنصرا جديدا قام بدور هام فى مناهضة نفوذهم فى بلاد الشام (٣) .

وكان أفتكين هذا الذى قام بدور كبير فى الشـام فى عهـد العزيز بالله يدعى أبو منصر التركى الشرابى بدأ حياته فى خـدمة معز الدولة أحمد بن بويه وترقى فى مناصب الدولة حتى تولى قيادة جند الأتراك فى بغداد فى عهد عز الدولة بختيار أمير بنى بويه بالعراق (٣٥٦ ـ ٣٦٧ هـ) وثار الأتراك بزعامة أفتكين عـلى بختيار

---

(١) أنظر نص الخطاب فى كتاب أتعاظ الحنفا للمقريزى ص ٢٥٨ ـ ٢٦٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٨ ص ٢١١ .
(٣) جمال سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام .

فاستعان بختيار بابن عمه عضـــد الدولة بن ركن الدولة وحلت الهزيمة بالأتراك فساروا الى بلاد الشام واستقروا بها . وساعدهم على ذلك انتشار الاضطرابات والفوضى فى بلاد الشام . وكان أهل دمشق يضمرون للفاطميين البغضاء لأنهم كانوا لا يزالون على حبهم لبنى أمية السنيين مما جعل الأمور ممهـــدة لأفتكين وبدأ دور جديد من الصراع حول بلاد الشام فى حيـــاة كل من الفاطميين والقرامطة .

بين العزيز بالله وأفتكين التركى :

أعلن أهالى دمشـــق الثورة على ولاة الخليفـــة العزيز بالله وأخرجوهم من مدينتهم ودعوا أفتكين التركى فلبى النداء وقام بالخطبة للخليفة العباسى الطائع وتعهد له شيوخ دمشق بمساعدته، وضمن أفتكين لهم الحماية (١) ثم مد أفتكين نفوذه الى كثير من مدن الشام مثل صيدا وعكا وطبرية . وأراد أفتكين أن يفوز بتحالف بنى بويه ولكنهم رفضوا أن يمدوا أيديهم اليه فاتجه نحو قرامطة البحرين .

ورأى الخليفة العزيز بالله بعد أن انتهى من تدعيم نفوذه فى مصر ، أن يعيد النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام . واستشار العزيز وزيره يعقوب بن كلس فيما يتبع نحو تحقيق هذا الهدف فنصحه بأن يبعث جيشا فاطميا بقيادة جوهر الصقلى لاسترداد دمشق .

وعلم أفتكين بزحف الجيش الفاطمى الى دمشق وخشى على هذه المدينة مما يحل بها من خراب نتيجـــة هجوم جيش جوهر فاجتمع بوجوه أهل دمشق وأبدى لهم استعداده فى الجـلاء عن بلدتهم ليجنبهم شر القتال ، ولكنهم طابوا منه الاستمرار فى البقاء معهم فنزل عند طلبهم وبدأ يستعد لمواجهة الجيش الفاطمى .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٨ .

وصل جوهر الى دمشق فى ذى القعدة سنة ٣٦٥ هـ وحاصرها طويلا وأبدى أفتكين شجاعة وصبرا ، ولكن أهالى دمشق ضاقوا بالحصار وطلبوا من أفتكين أن يكتب الى الحسن بن أحمد زعيم القرامطة ببلاد البحرين يطلب نجدته ولبى الزعيم القرمطى النداء وقدم على رأس جيش من القرامطة .

ورأى جوهر أنه أصبح بين عدوين قويين فرأى أن ينهى حصاره لدمشق ويرحل الى الرملة . وتتبعه أفتكين والقرامطة فانسحب جوهر الى عسقلان . ولما كانت خطوط الامدادات والتموين بين جيش جوهر ومصر طويلة فقد رأى أن يفاوض أفتكين فى الهدنة .

التقى جوهر بأفتكين فقال جوهر له : « قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الاسلام وحرمة الدين وقد طالت هذه الفتنة وأريقت فيها الدماء ونهبت الأموال ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى ، وقد دعوتك الى الصلح والطاعة والموافقة وبذلت لك الرغائب فأبيت الا القبول ممن يشب نار الفتنة فراقب الله تعالى وراجع نفسك وغلب رأيك على هوى غيرك » .

وكان من العسير أن يعود أفتكين لطاعة الفاطميين بعد قدوم القرامطة ولذا قال : « أنا والله واثق بك فى صحة الرأى والمشورة منك لكنى غير متمكن مما تدعونى اليه بسبب القرمطى الذى أحوجتنى أنت الى مداراته والقبول منه » (١) .

ثم اتفق جوهر وأفتكين على الصلح ، وتعهد جوهر بأن يؤدى الى أفتكين مبلغا من المال وأن يخرج من تحت سيف أفتكين ورمح الحسن بن أحمد القرمطى وعاد جوهر الى مصر .

وفى القاهرة اجتمع جوهر بالخليفة العزيز بالله وأطلعه على تطورات الأحداث التى أدت الى عقد هذا الصلح المهين للفاطميين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٨ .

ورأى العزيز أن يتخذ موقفا حاسما يحفظ كرامة الدولة الفاطمية فعزم على أن يقود بنفسه جيشا وجعل جوهر على مقدمته . وأدرك أفتكين والقرامطة خطورة الموقف فأعدوا جيشا كثيفا ضموا اليه أعدادا من العرب وتحصنوا فى الرملة .

وفى الرملة دارت حرب عنيفة بين الجيش الفاطمى وجيش أفتكين والقرامطة وقد شاهد العزيز فى هــذه الحرب من شجاعة أفتكين ما أثار اعجابه فبعث العزيز برسول الى أفتكين يحثه على الدخول فى طاعته ويعده بأن يوليه الخليفة حكم الولايات ويجعله مقدم جنده ومستشاره فى دولته ويدعوه الى لقاء الخليفة .

والتقى رسول العزيز بأفتكين ولكن أفتكين أبدى اعتذاره عن قبول ما عرضه الخليفة عليه وقال : قل لأمير المؤمنين لو قدم هذا القول لسارعت وأطعت ، وأما الآن فلا يمكن الا ما ترى !

وعادت الحرب من جديد قرب الرملة ولحقت الهزيمة بأفتكين والقرامطة وقبض الفاطميون على أفتكين . ووصف ابن القلانسى (١) لقاء أفتكين بالعزيز فذكر أن أفتكين لما دخل على العزيز فى سرادقه ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه وحمـــل الى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن أفتكين ازاء ما لقيه من تسامح العزيز الا أن رمى بنفسه الى الأرض وألقى ما على رأسه وبكى بكاء شديدا وقال : « ما استحققت الابقاء على فضــلا عن العفو الكريم والاحسان الجسيم » وامتنع أفتكين عن الجلوس فى الدست، وقعد بين يدى العزيز وألبسه جوهر من ملابس العزيز وهدأ روعه فجدد الدعاء وتقبيل الأرض وشكر جوهرا على ما أبداه من تسامح وكرم وعفا الخليفة عن أفتكين وصحبه الى مصر وعامله معاملة كريمــة وخصص له دارا يقيم فيها (٢) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ١٨ وما بعدها .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٠ .

أشاد المؤرخ (آدم متز) بموقف الخليفة العزيز بالله من أفتكين التركى فقال : « وسار العزيز بنفسه لمحاربة أفتكين التركى فهزمه وأسره واستنقذه من بين يدى آسريه بعد أن كاد يموت ضربا ولكما وأمنه على نفسه ، ودفع اليه خاتمه ، واستسقى التركى ماء فأمر العزيز باحضار قدح شراب جلاب فلما أتى بالقدح توقف التركى عن الشرب خوفا من أن يكون فى القدح سم قاتل ولاحظ العزيز ذلك فأخذ القدح وشرب منه ثم أعطاه ليشرب وأفرد له خيمة وأمر بأن يحمل اليه جميع ما يحتاج اليه وحمله على دوابه وأمره بالركوب على مركبه ، وسأل عن أناس ممن يأنس بهم فالتمس احضار قوم من أصحابه فأتى اليه بهم من بين الأسارى . ولما رجع العزيز الى مصر ، تقدم الى وجوه دولتـــــه وقواده وأمرائه باكرام التركى واجلاله » (١) .

أما الحسن بن أحمد زعيم القرامطة فقد انسحب مهزوما الى طبرية وهناك قدم عليه رسول الخليفة العزيز بالله يدعوه الى لقاء الخليفة ويؤمنه على نفسه ولكن الزعيم القرمطى رفض هذه الدعوة ورحل الى الاحساء مع جيش القرامطة بعد أن اتفق معه العزيز على أن يدفع له أتاوة قدرها عشرون ألف دينار طوال حياته (٢) .

وهكذا أخفقت الحركة التى أثارها أفتكين التركى فى بلاد الشام كما زال نفوذ القرامطة فى هذه البلاد واضطروا الى الجلاء عنها ، مما سهل على الفاطميين فى عهد العزيز بالله استعادة دمشق الى حوزتهم (٣) .

وقد أضعفت هذه الحروب القرامطة وفككت وحدتهم حتى أن جماعة منهم ثاروا على آل الحسن الأعصم واضطروهم الى الهجرة الى جزيرة « أوال » حيث انتقم منهم أعداؤهم واتخذ الخليفــة

---

(١) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن ٤ هـ جـ ١ ص ٢٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢١٩ .

(٣) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٤٤ .

العزيز الذى كان اليد المحركة التى أوقعت الاضطراب فى صفوف القرامطة من ذلك فرصة لجذب هؤلاء القرامطة وأعادتهم ثانية الى حظيرة الفاطميين (١) واستمر ولاء القرامطة للفاطميين حتى زالت دولتهم من جزيرة (أوال) سنة ٤٥٨ هـ ومن البحرين بعد أن قضى السنيون عليهم فى سنة ٤٧٠ هـ . ولكنهم لم يقوموا بأعمال حربية منذ سنة ٧٥ هـ حين نجح العزيز بالله فى هزيمتهم بالشام .

نفوذ العزيز بالله فى الجزيرة العربية :

كان النفوذ السياسى فى الجزيرة العربية عامة وفى بلاد الحجاز خاصة للدولة العباسية حتى قدم المعز لدين الله الفاطمى الى مصر فعمل على بسط نفوذه على البلاد المقدسة فى الحجاز حتى تتحقق للدولة الفاطمية زعامة العالم الاسلامى ، وكانت الدولة الفاطمية تعتبر نفسها وريثة للدولة العباسية المتداعية .

وانتهز المعز لدين الله فرصة نزاع قام بين الأشراف العلويين بنى الحسن وجعفر بن أبى طالب فتدخل فى هذا النزاع ونجح فى عقد الصلح بين الطرفين وأغدق عليهم جميعا صلاته وعطاياه فقام الحسن بن جعفر أمير مكة بالدعاء للخليفة المعز على منابر مكة وبعث المعز اليه برسالة يقره فيها على امارته (٢) .

ظلت الخطبة تقام للمعز فى كل من مكة والمدينة حتى توفى سنة ٣٦٥ هـ وخلفه ابنه العزيز بالله فانقطعت الخطبة له فى بلاد الحجاز فبعث اليها سنة ٣٦٧ هـ بادريس بن زيرى الصنهاجى أميرا على الحج فاستولى على الحرمين وقام بالخطبة للخليفة العزيز بالله .

على أن نفوذ الفاطميين رغم ذلك لم يكن مستقرا فى مكة والمدينة طوال عهد العزيز فقد دعا أمير حاج العراق لعضد الدولة بن بوية

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٠٠ .

(٢) المقريزى اتعاظ الحنفا ص ١٤٦ .

واضطر العزيز سنة ٣٨٠ هـ الى ارسال حملة الى بلاد الحجاز ضيقت الحصار على أهلها وانتهى الأمر باعادة الخطبة للعزيز على منابر مكة والمدينة وانقطعت الدعوة للعباسيين بهاتين المدينتين . وظل طاهر بن مسلم وهو من بنى الحسين أمير المدينة مواليا للفاطميين ، كما ظل أمير مكة عيسى بن جعفر وهو من بنى الحسن على ولائه للخليفة العزيز بالله الفاطمى (١) .

أما بلاد البحرين فقد سيطر عليها القرامطة مما أثار المتاعب للدولة العباسية الى جانب مشاكلها الداخلية ، ولذا شغل القرامطة العباسيين عن وقف فتح الفاطميين لمصر . وكانت العلاقات فى أول الأمر طيبة ودية بين قرامطة البحرين والدولة الفاطمية اذ يشتركون جميعا فى المذهب الاسماعيلى . ولكن العلاقات ساءت كثيرا بعد انقسام القرامطة الى فريقين أحدهما بزعامة بيت أبى طاهر وثانيهما بزعامة بيت أحمد بن أبى سعيد وعلى رأسه ابنه الحسن الأعصم . وقد مر بنا تطورات العداء والصراع بين الأعصم والفاطميين . وشهدنا كيف نجح الخليفة العزيز بالله فى اجلاء القرامطة عن بلاد الشام فاستقروا بعد ذلك فى بلاد البحرين (٢) .

أدت وفاة الحسن الأعصم سنة ٣٦٧ هـ الى قيام الانقسامات الداخلية بين القرامطة فى بلاد البحرين وحفلت هذه البلاد بالاضطرابات وأبدى القرامطة سخطهم على سياسة الأعصم الذى خاصم الفاطميين وهادن العباسيين وانتهز بيت أبى طاهر الفرصة لينتزعوا السلطة فى بلاد البحرين ونجح زعيمان من هذا البيت وهما جعفر واسحق فى الوصول الى الحكم ، وأعلنا ولاءهما للفاطميين وعداءهما للعباسيين وقام القرامطة فى عهد العزيز بالله سنة ٣٧٥ هـ بهجوم على الكوفة ولكن البويهيين نجحوا فى رد

---

(١) سرور : النفوذ الفاطمى فى جزيرة العرب ص ١٦ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٢٨ .

القرامطة عن بلاد العراق فعادوا الى بلاد البحرين ولم يعاودوا هذه المحاولة ثانية وانطووا على أنفسهم .

وأمتد نفوذ الخليفة العزيز بالله فى الجزيرة العربية أيضا الى بلاد اليمن ، فقد دخل زعيم طائفة الاسماعيلية بهذه البلاد ابن رحيم الملقب بابن جفتم فى طاعة العزيز بالله الفاطمى وظل على ولائه للعزيز حتى شعر بقرب وفاته فاستخلف على أتباعه من الاسماعيليين يوسف بن الأسد ، كما دعا أمير صنعاء عبد الله بن قحطان بن أبى يعفر سنة ٣٧٩ هـ للخليفة العزيز بالله من فوق منابر صنعاء .

نفوذ العزيز فى العراق :

أدى ظهور القرامطة فى جنوب بلاد العراق ، والتشابه بين دعوتهم ودعوة الاسماعيلية الى جذب كثير من أهالى الولايات العباسية الى اعتناق المذهب الاسماعيلى فصارت بلاد السواد تموج بأتباع الاسماعيلية .

وكان لضعف سلطة الخلفاء العباسيين منذ أوائل القرن الرابع الهجرى بسبب ازدياد نفوذ القواد من الأتراك واستقلال الأمراء بولاياتهم واستبداد البويهيين بأمور الخلافة أثره فى تشجيع الفاطميين على ارسال دعاتهم الى بلاد الدولة العباسية لنشر الدعوة لهم ، كما خفزهم الى العمل على تقويض دعائم الخلافة العباسية وانتزاع زعامة العالم الاسلامى منها (١) .

وكان الخليفة المعز لدين الله يأمل فى فتح العراق ، كما فتح مصر وعبر قبيل وفاته سنة ٣٦٥ هـ عن هذه الآمال فى حديث له مع رسول الامبراطور البيزنطى الذى كان قد قدم لزيارة القاهرة فقال المعز له : أتذكر اذ أتيتنى رسولا وأنا بالمهدية فقلت لك لتدخلن

(١) سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ص ٧٦ .

على وأنا بمصر مالكا لها ؟ فقال الرسول : نعم . فقال المعز : وأنا أقول لك لتدخلن على بغداد وأنا خليفة (١) .

ضعفت الدولة العباسية واستأثر البويهيون بالنفوذ الحقيقى مما هيأ الفرص لانتشار المذهب الفاطمى فى بلاد العراق فقد اعتنق البويهيون المذهب الشيعى على مبادىء الزيدية ونظروا الى الخلفاء العباسيين على أنهم قد اغتصبوا الحق الشرعى للأئمة العلويين وفكر زعيم البويهيين معز الدولة بن بويه فى نقـــل الخلافة من العباسيين الى المعز لدين الله باعتباره من الأسرة العلوية الفاطمية . ولكن خاصته لم توافق على مشروعه وأثاروا مخاوفه وشكوكه فقالوا له : « ليس هذا برأى فانك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخـــلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معــك من تعتقد أنت وأصحابك صـــحة خـــلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه » (٢) .

ولكن معز الدولة بن بويه وان كان قد عدل عن تحويل الخلافة الى المعز لدين الله الفاطمى وفضل الاستمرار فى استئثاره بالسلطة دون الخليفة العباسى السنى الا أنه سمح للدعاة الفاطميين بنشر مذهبهم فى بلاد العراق .

وفى خلافة العزيز بالله توثقت صلات الصـــداقة والمودة بين عضد الدولة ابن ركن الدولة وبينه (٣٧٦ ــ ٣٧٢ هـ) وتبادلا الرسائل الودية واعترف هذا السلطان بأمامة الخليفة العزيز .

وكان لهجـــوم البيزنطيين المســـتمر على الأراضى العباسية والفاطمية المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية أثره فى توثيق الصلات بين العزيز والبويهيين حتى يتعاونوا جميعا فى صد البيزنطيين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٢٠ .
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٤٩ .

وجاء فى رسالة الخليفة العزيز بالله الى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ :
« ان رسولك وصل الى حضرة أمير المؤمنين مع الرسول المنفذ اليك فأدى ماتحمله من اخلاصك فى ولاء أمير المؤمنين ومودتك ومعزتك بحق امامته وصحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك ووافق ماكان يتوسمه فيك وأنك لا تعدل عن الحق .. » (١) .

واستقبل عضد الدولة رسول الخليفة استقبالا حافلا ، واحتشد كبار رجال الدولة العباسية للترحيب بهذا الرسول ، وبعث عضد الدولة برده على رسالة العزيز ، فأعلن ولاءه للخليفة العزيز باعتباره من آل الرسول صلى الله عليه وسلم وأبدى استعداده لتنفيذ أوامره .

وأبدى المؤرخ أبو المحاسن تعجبه من رسالة عضد الدولة الى العزيز بالله الفاطمى ، رغم أنه أحد رجال الدولة العباسية السنية ، عدوة الدولة الفاطمية الشيعية فقال أبو المحاسن : « وانى أتعجب من كون عضد الدولة كان اليه أمر الخليفة العباسى ونهيه ويقع فى مثل هذا لخلفاء مصر ، وقد علم كل أحد ماكان بين بنى العباس وخلفاء مصر من الشنآن . وما أظن عضد الدولة كتب له ذلك الا عجزا عن مقاومته » .

ولكن العلاقات سرعان ما ساءت بين العزيز بالله الفاطمى وعضد الدولة البويهى حتى أن عضد الدولة أراد غزو مصر واستردادها من الفاطميين بعد أن أدرك خطر الدولة الفاطمية على سلطان بنى بويه . ولكن هذا المشروع لم يتم بسبب وفاة عضد الدولة . ولكن البويهيين استمروا على تأييد المذهب الشيعى والعمل على نشره فى بلاد العراق .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

العلاقات بين العزيز بالله والدولة البيزنطية :

كان البيزنطيون فى عصر الخليفة المعز لدين الله قد اتخذوا من النزاع بين الفاطميين والقرامطة فى بلاد الشام فرصة لمواصلة هجومهم على هذه البلاد . فتقدم الامبراطور البيزنطى (حنا زيمسكيس) من أنطاكية الى حمص ثم الى بعلبك ، واضطرت دمشق الى التسليم ودفع الجزية الى الامبراطور . كما استولى الامبراطور أيضا على طبرية وقيسارية ثم بيروت وصيدا . ولما حاول الامبراطور فتح طرابلس ونجح أهلها بمساعدة الأسطول الفاطمى فى هزيمة الامبراطور الذى رأى الانسحاب الى أنطاكية وما لبث أن توفى فى القسطنطينية بعد فترة قصيرة .

أرسل الخليفة العزيز بالله فى سنة ٣٧٧ ﻫ حملة بحرية لغزو أراضى الدولة البيزنطية ولكن هذه الحملة لم تحقق أهدافها اذ نشب حريق فى الأسطول المصرى قضى على كثير من سفنه . ثم قدم الى مصر رسل من الامبراطور البيزنطى (باسيل الثانى) يحملون كثيرا من الهدايا الفاخرة للعزيز بالله وطلبوا منه عقد الصلح فوافق العزيز بالله على طلبهم .

نصت شروط الصلح بين العزيز بالله والدولة البيزنطية على :

١ ـ اطلاق سراح أسرى المسلمين فى الدولة البيزنطية .

٢ ـ الدعاء للخليفة الفاطمى بجامع القسطنطينية فى خطبة الجمعة .

٣ ـ حمل ما يطلبه الخليفة من أمتعة الروم .

٤ ـ عقد الهدنة بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية سبع سنين (١) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٥٢ .

وعلق المؤرخ (ستانلى لينبول) على هذا الصلح فقال : تحسنت العلاقات السياسية بين الدولتين البيزنطية فى أواخر عهد الخليفة العزيز بالله وبعث الامبراطور البيزنطى بكثير من هداياه الفاخرة منها ٢٨ صينية من الفضة ، وأطباق محلاة بالذهب .

ولكن هذه الهدنة لم تؤد الى انتهاء العداء بين الدولتين الفاطمية والبيزنطية فقد استنجد الحمدانيون فى حلب بالامبراطور البيزنطى باسيل الثانى لصد الجيش الفاطمى الزاحف الى الشام. وأمدهم الامبراطور بجيش ولكن الفاطميين نجحوا فى هزيمة الحمدانيين والبيزنطيين سنة ٣٨١ هـ .

ورأى العزيز بالله أن يتوج نصره بالاستيلاء على حلب واستنجد أميرها مرة أخرى بالامبراطور البيزنطى فخرج بنفسه على رأس جيش ، ففتح حمص ، وزحف الى طرابلس ولكنه أخفق فى فتحها، فآثر الانسحاب الى القسطنطينية سنة ٣٨٥ هـ بعد أن مد نفوذه على معظم مدن ساحل الشام .

ورأى العزيز بالله أن يخرج بنفسه للقضاء على النفوذ البيزنطى فى بلاد الشام فأعد حملة برية وأمر وزيره عيسى بن نسطورس بانشاء أسطول يسير بحرا الى طرابلس ولكن سفن هذا الأسطول احترقت فى ميناء المقس بالقاهرة وأتهم المصريون الروم المقيمين بالقاهرة قرب دار الصناعة بالمقس بأنهم أشعلوا النيران فى السفن فقتلوا عددا كبيرا منهم وأمر العزيز وزيره بانشاء أسطول آخر . حتى اذا تم اعداد سفنه أبحرت الى البحر المتوسط وهبت عاصفة عنيفة أطاحت بمعظم هذه السفن ووقع رجالها من الفاطميين فى الأسر . أما الحملة البرية فقد خرج على رأسها العزيز بنفسه الى بلبيس ولكن اشتد المرض عليه فتخلف بها وما لبث أن توفى سنة ٣٨٦ هـ (١) .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٢ .

العلاقات بين العزيز بالله والدولة الأموية بالأندلس :

كان العداء بين بنى أمية وبنى هاشم تقليديا ومتوارثا بدأ فى العصر الجاهلى واستمر فى العصر الاسلامى وكان العلويون وهم من بنى هاشم ، يعتقدون أن الأمويين قد اغتصبوا حقهم فى الخلافة وأقاموا دولتهم فى دمشق بالشام . ونجح الأمويون فى اقامة دولة لهم بالأندلس بعد سقوط الدولة الأموية بالشـــام وقيام الدولة العباسية بالعراق وظهر العداء واضحا بين العلويين والأمويين بعد قيام الدولة الفاطمية فى المغرب ثم مصر نتيجة الاختلاف المذهبى، وقرب الدولتين بعضهما من بعض .

وبعد قيام الخلافة الفاطمية أعلن عبد الرحمن الناصر نفسه خليفة فى بلاد الأندلس (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) وأصبح فى العالم ثلاث خلافات : الخلافة العباسية فى المشرق والخلافة الفاطمية فى المغرب والخلافة الأموية فى الأندلس . وكان الأمويون بالأندلس يأمرون خطباءهم بسب الفاطميين من فوق المنابر كما كان يفعل الخلفاء الأمويون فى دمشق حينما كانوا يسبون آل على بن أبى طالب .

ومن عوامل العداء بين الفاطميين والأمويين ما كان من اتخاذ عبد الرحمن الناصر فى أفريقية الشمالية بعض المدن ذات الموقع الاستراتيجى ليجعلها مركزا يغير منها على قلب الدولة الفاطمية فى بلاد الأندلس أو على الأقل يستطيع أن يدفع منها خطـــر الفاطميين اذا أغاروا على بلاده .

وكان المعز لدين الله باعتباره خليفة علويا يريد القضـــاء على الخلافتين السنيتين فحاول القضاء على الخلافة الأموية بالأندلس حتى اذا أدرك صعوبة تحقيق هـــذا الأمل اتجـــه نحو الدولة العباسية فانتزع منها مصر وبلاد الشام ثم امتد نفوذ الخليفـــة العزيز بالله الى الجزيرة العربية وبلاد العراق .

وفى الحقيقة كان الصراع بين الفاطميين والأمويين بالأندلس صراعا على زعامة المسلمين الروحية والسياسية ورغبة الخلفـــاء الفاطميين فى الانفراد بهذه الزعامة . ولذا حرص الخليفتان المعز والعزيز على أن يصبغا دولتهما بالعظمة والأبهة . واشتهر الخليفتان بالتقوى والورع والاهتمام برعاياهما بينما انصرف كثير من الخلفاء العباسيين والأمويين الى اللهو والمجون . وحرص الخليفتان على اثبات نسبهما دائما الى على بن أبى طالب وفاطمة بنت الرســول عليهما السلام ، حتى يتفوقا على الخلفاء العباســيين والأمويين بالاندلس لأن الفاطميين والأمويين أقرب الى الرسول من أبناء عمهم العباسيين ومن الأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من على وأبنائه .

وكما كان الخلفاء العباسيون يتراسلون مع الأمويين بالأندلس برسائل تحوى الهجاء والسباب فقد سار الخلفاء الفاطميون على هذه السياسة . فقد تبادل الخليفة العزيز بالله الفاطمى والخليفة الأموى بالأندلس الحكم المستنصر رســـائل حوت أبياتا من الشعر وعبارات الهجاء .

كتب الخليفة الحكم المستنصر الأموى فى أول رســالته الى العزيز بالله هذا البيت :

ألسنا بنى مــروان كيف تقلبت
بنا الحال أو دارت علينا الدوائر؟

ورد العزيز بالله برسالة هجاء مماثلة جاء فى أولها هذا البيت :

اذا ولــد المــولود منـــا تهللت
له الأرض واهتزت اليــه المنابر

وعمل الخليفة الأموى الحكم المستنصر على انتزاع بلاد المغربين الأقصى والأوسط من الفاطميين فبعث بجيش استولى على هذه البلاد وخطب له على منابرها وتوقفت الخطبة للخليفـة الفاطمى كما قضى على نفوذ الأدارسة العاويين فى منطقة الريف .

نفوذ العزيز بالله فى المغرب وصقلية :

قامت الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب على أكتاف الكتاميين والصنهاجيين حتى اذا انتقلت الدولة الى مصر ، لم يكن بد من أن يستخلف المعز صنهاجة التى أخلصت كثيرا للفاطميين فولى بلكين ابن زيرى بن مناد الصنهاجى وكان هذا نواة قيام دولة بنى زيرى فى المغرب .

ولكن سيادة الفاطميين لم تزل عن بلاد المغرب برحيلهم الى مصر لأن بنى زيرى أسسوا دولة تمتعت باستقلال ذاتى ودخلت فى دائرة الامبراطورية الفاطمية ودانت بالتبعية للخليفة الفاطمى بالقاهرة . وخطب للفاطميين على منابر المغرب وضربت السكة بأسمائهم . كما كان بنو زيرى يرسلون الجزية الى مصر فى كل سنة (١) .

واستمر ولاء بنى زيرى للدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله ، فاستمر ورود الجزية وكتب العزيز الى بلكين يأمره بمساعدة الحسن الادريسى فى حربه مع الأمويين بالمغرب . كما أرسل الى المنصور بن بلكين يطلب منه عزل أحد القضاة فنفذ أمره فى الحال وحمل القاضى الى مصر وهو على فراش المرض . وكان الخلفاء الفاطميون يطلبون مساعدة بنى زيرى اذا احتاجوا اليها .

كانت جزيرة صقلية تتبع الدولة البيزنطية حتى فتحها الأغالبة الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فى سنة ٢١٢ هـ . وانتشر الاسلام واللغة العربية فى جزيرة صقلية وأصبحت صقلية معبرا تعبر منه الحضارة العربية الاسلامية الى القاهرة الأوربية . وظلت صقلية خاضعة للأغالبة الى سنة ٢٩٦ هـ حتى قامت الدولة الفاطمية فثار أهالى صقلية على الأغالبة وأعلنوا طاعتهم للفاطميين وحاول العباسيون عبثا أن يبعدوا النفوذ الفاطمى عن جزيرة صقلية

---

(١) حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٢ .

بينما حرص الفاطميون دائما على أن تكون لهم السيادة فى صقلية لما اشتهرت به من خصوبة وثروة معدنية الى جانب موقعها الاستراتيجى الممتاز ، وأراد الفاطميون أن تكون صقلية نقطة ارتكاز يمدون منها نفوذهم شرقا وغربا وحتى يصبح البحر المتوسط بحيرة فاطمية (١) .

برزت الأسرة الكلبية فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فى جزيرة صقلية ونجح أمير صقلية الحسن الكلبى فى اخضاع جميع الروم فيها الى النفوذ الفاطمى مما جعل الامبراطور البيزنطى يبعث جيوشه الى صقلية وانتصر الحسن الكلبى على البيزنطيين بل قام بغزو جنوب ايطاليا . وحاول البيزنطيون غزو صقلية مرة أخرى فكان نصيبهم الاخفاق أيضا .

وتولى حكم الدولة البيزنطية امبراطور قوى هو (نقفور فوكاس) وكان قد انتصر على العباسيين والحمدانيين وأراد أن يشغل الفاطميين عن التطلع الى بلاد المشرق فأعد اسطولا ضخما وجيشا كثيفا بلغ عدد جنده أكثر من خمسين ألف جندى ولكن الجيوش الفاطمية نجحت فىهزيمة البيزنطيين واستسلمت جميع مدن صقلية التى كانت ثارت على الحكم الفاطمى واضطر البيزنطيون الى أن ينشدوا صداقة الدولة الفاطمية وخاصة بعد ظهور خطر جديد يهدد الدولة البيزنطية وهو رغبة الامبراطور أوتو الأكبر فى توحيد ايطاليا والقضاء على النفوذ البيزنطى والفاطمى . ولذا رأى الامبراطور البيزنطى نقفور فوكاس أن يستعين بالفاطميين فى دفع الخطر الجرمانى عن ممتلكاته فى ايطاليا وعقد الصلح بين الخليفة المعز ونقفور فوكاس .

وبعد موت الحسن بن أحمد الكلبى سنة ٣٥٤ هـ اضطرب أمر جزيرة صقلية ورأى الخليفة المعز أن يتخلص من الأسرة الكلبية القوية

(١) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ٢٠٧ .

حتى لا تستأثر بالسلطة دونه وخاصة بعد اطمئنانه الى توقف اغارات البيزنطيين ، ولكن المعز عدل عن هذه الفكرة بعد ثورة أهالى صقلية على الوالى الفاطمى واضطر المعز الى تولية ابى القاسم ابن الحسن الكلبى .

وفى عهد الخليفة العزيز بالله توقفت السياسة الحكيمة التى اتبعها الامبراطور البيزنطى (نقفور فوكاس) الذى تحالف مع الفاطميين لمواجهة الخطر الجرمانى فقد تولى امبراطور بيزنطى جديد هو (حنا زيمسكيس) الذى حاد عن هذه السياسة وتحالف مع الامبراطور أوتو الأول ، وبدأ صراعا عنيفا مع الفاطميين وقد تحدثنا عن أدوار هذا الصراع عند حديثنا عن علاقات العزيز بالله بالدولة البيزنطية . وعمل أبو القاسم الكلبى على تحصين جزيرة صقلية ليواجه الأخطار المتوقعة .

العزيز بالله في قصره

القصر الشرقى الكبير :

شيد جوهر الصقلى ، فاتح مصر ، القصر الشرقى الكبير ليقيم فيه الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عند قدومه الى مصر ، ويذكر المؤرخ المقريزى أن المعز أمر قائده جوهر ببناء هذا القصر ، وشرح له تفاصيل البناء ، وكان يسمى بالقصر المعزى ، وأصبح مقرا للخليفة (١) . وبدأ جوهر فى انشاء هذا القصر فى نفس اليوم الذى وضع فيه أساس القاهرة ، أى فى يوم الأربعاء ١٨ من شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، وانتهى من بنائه وركب أبوابه فى يـــوم الخميس ١٣ من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ ، وبنى حوله سورا كبيرا فى سنة ٣٦٠ هـ .

ولما قدم المعز الى مصر سنة ٣٦٢ هـ ، كان جوهر قد فرغ من بناء هذا القصر ، فأصبح مسكنا للخليفة ومركزا للحكم ، ويعقد فيه (مجلس الملك) ويحوى دواوين الحكومة ودور السلاح ، وكان يحوى كثيرا من الممرات السرية .

ووصف المقريزى الحياة فى هــذا القصر فقال : « ولا يركب أحد فى القصر الا الخليفة ، ولا ينصرف ليلا ونهارا الا كذلك . وله فى الليل شدادات من النساء يخدمن البغلات والحمير الاناث ، للجواز فى السراديب القصيرة الاقباء ، والطلوع على الزلاقات الى

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٨٤ .

أعالى المناظر والأماكن ، وفى كل محـلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خفية من حدوث حريق فى الليل » (١) .

ووصف الرحالة ناصر خسرو هذا القصر فقال أنه كان فى وسط القاهرة ، وبينه وبين الأبنية المحيطة به فضاء يفصله عنها ، وكان يحرسه فى الليل خمسمائة فارس من الفرسـان وخمسمائة حارس من الرجالة ، وكانت أسواره عالية فلا يستطيع أحد رؤيته من داخل المدينة . وكان بالقصر ألوف من الخدم والنساء والجوارى ، وله عشر بوابات فوق الأرض ، وباب يقـود الى ممر تحت الأرض يعبره الخليفة راكبا ليصل الى القصر الآخر . وكان صاحب العسس يطوف كل ليلة حول القصر فى ألف رجل بالطبول والبوقات فى ملابس زاهية .

واشتهر القصر الشرقى الكبير بالفخامة ، بحيث اعتقد البعض أنه فاق قصر (لابيرانت) أو (قصر التيه) الذى شيده امنحتب الثالث (١٨٠١ ق . م .) أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة مقرا لحكمه بالفيوم ، والذى بلغ عدد حجراته ثلاثة آلاف ، على أن شهرة هذا القصر قد تضاءلت أمام شهرة القصر الشرقى الكبير ، الذى بلغ عدد حجراته أربعة آلاف حجرة .

وأصبح هذا القصر أشبه بمستعمرة كبيرة ، حتى أن صلاح الدين الايوبى لما قضى على الدولة الفاطمية فى أواخر القرن السادس الهجرى ، واستولى على هـذا القصر ، وجد فيه أكثر من اثنى عشر ألف امرأة (٢) .

وقد استمر القصر الكبير دارا لخلفاء الفاطميين ، منذ أقام فيه المعز لدين الله فى اليوم السابع من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ ،

---

(١) الخطط ج ١ ص ٣٨٧ .
(٢) المعز لدين الله ص ٢١٨ .

وهو القصر الذى عاش فيه العزيز بالله منذ أن قدم مع أبيه الى مصر ، ثم عاش فيه ، وحكم منذ دولته طوال عهد خلافته .

وصف المقريزى القصر الشرقى الكبير ، فذكر أنه يشتمل « على ما فيه من عين وورق ، وجوهر ، وحلى وفرش وأوانى وثياب وسلاح وأسقاط وأعدال وسروج ولحم ، وبيت المال بحاله بما فيه ، وفيه جميع ما يكون للملوك » (١) وذكر المقريزى أيضا أنه كان يعلق فى هذا القصر « ستور الديباج شتاء والديبقى صيفا ، فرش الشتاء بسط الحرير ، عوضا من الصوف ، مطابقا لستور الديباج . وفرش الصيف مطابقا لستور الديبقى ، ما بين طبرى وطبرستانى مذهب معدوم المثل » (٢) .

رسم **(راقيس)** تصميم القصور الفاطمية ، وبين دخائلها مستعينا بوصف المقريزى . ووفقا لما جاء فى أبحاثه القيمة ، نجد أن القصر الشرقى العظيم كان يحتوى على الأخص على ثلاثة مبان كبيرة مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تكون فى مجموعها ثلاثة أرباع المربع ، أما الجزء أو الربع الباقى ، فكان يوجد فيه قصر الاحتفالات ، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر العظيم وقصر الوزراء ، حيث كان الناس يحتفلون بالاعياد . وكان هذا القصر العظيم ، الذى يحده الأزهر ودار الوزارة ، يحتل المكان ما بين خان الخليلى وحى الحسين فى الوقت الحاضر حتى شارع الجمالية . وكانت الأبهاء والقاعات والمكاتب المختلفة موزعة فى تلك المبانى أما المرابط والمخازن فكانت لها أبنية أخرى بعيدة منعزلة (٣) .

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٩٠ .
(٢) الخطط ج ١ ص ٢٨٦ .
(٣) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٧٦ .

وتميز القصر الشرقى الكبير بكثرة أبوابه ، فمنها الذهب ، وكانت تعلوه منظرة يشرف منها الخليفة فى بعض الأوقات ، وباب العيد ، وأمامه رحبة متسعة يقف فيها الجنود فى يومى العيدين ، وتعرف برحبة العيد . وباب الديلم وموقعه الآن مسجد الحسين ، ويصل الى باب الزعفران ، وهى مقبرة الخلفاء وسـائر أفراد الأسرة وجثث المهدى والقائم والمنصور ، وكان قد أحضرها معه من بلاد المغرب فى توابيت . وظلت هذه المقبرة مدفنا للخلفاء الفاطميين وأولادهم ونسائهم .

ويقابل باب الديلم الجامع الأزهر فى الجنـوب الشرقى من القصر ، وكان الخليفة يصلى فيه صلاة الجمعة . وبجوار رحبـة باب العيد ، دار الضيافة ، وكانت تسمى دار سعيد السعداء ، وفى مقابلتها دار الوزارة ، وكان هناك طريق يوصل بين باب تربة الزعفران وباب الزهومة الذى يؤدى الى مطابخ القصر ومكانه الآن شارع الصاغة . وتقع خزائن القصر بين هـذا الباب والجامع الأزهر .

ومن هذه الخزائن خزائن الكتب والشراب والأسلحة والكسى والفرش ، وكانت فى الجهة الشرقية من القاهرة المعزية . وحرص المعز والعزيز على تأثيث هذا القصر بأفخر الأثاث والرياض ، فقد كان الخليفتان يميلان الى الترف ومظاهر العظمة .

القصر الغربى الصغير وقصر البحر :

أقام الخليفة العزيز بالله فى القصر الشرقى الكبير طوال حياة أبيه المعز فى مصر ، اذ لم تطل حياة المعز أكثر من عامين ، ثم أقام العزيز فى القصر بعد توليه الخلافة ، حتى شيد قصرا آخر ، أصغر من قصر أبيه ، وسماه القصر الغربى الصغير . وأصبح يطلق على القصرين (القصور الزاهرة) (١) .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، ص ٢١٢ .

أصبح هذا القصر الغربى الصغير مقرا لسكن الخليفة العزيز ، ومركزا للحكومة الفاطمية . وظل القصر قائما حتى بنى فى موضعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى ، ولا يزال بعضه الى اليوم يعرف بسوق النحاسين وبجواره الى الشمال الميدان والبستان الكافورى ، ودار الضيافة القديمة ، ورحبة الاقبال ، وكان بين هذين القصرين فضاء يسع عشرة آلاف جندى أطلق عليه فيما بعد (بين القصرين) .

وكان للقصر الغربى الصغير جناحان بارزان فى كلا الطرفين لكى يمتد بين القصرين أما المسافة بين القصر الغربى والحائط الغربى فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على الخليج (١) . وكانت أرضية القصر مرصوفة بأنواع من الرخام المتعددة الألوان ، وبالسقوف ألواح تزينها الزخارف الذهبية الجميلة ، وبه نافورة يجرى الماء فى أنابيب من الذهب والفضة . وبالقصر دور فسيحة وقباب وأروقة ، زينت جدرانها وسقوفها بالرسوم الملونة والفسيفساء المذهبة ، وفرشت بالديباج والوشى ، الى جانب البساتين والحدائق الغناء ، ومقاصير الحريم والخدم والحاشية . وأصبحت القصور الزاهرة مضرب المثل فى بهائها ورونقها ، وما حوته من تحف نادرة وأثاث ثمين (٢) .

وبنى العزيز بالله كثيرا من القصور ، بعضها فى عين شمس ، كما بنى قصر البحر الذى وصفه ابن خلكان (٣) ، كما ذكرنا ، بأنه لا يوجد شبيه له فى الشرق ولا فى الغرب . وكان هذا القصر مثلا أعلى للقصور فى العصور الوسطى ، فكان جزؤه الخارجى الذى يحيط بالبركة من الاتساع ، بحيث يخيل الى الناظر انه مدينة من المدن .

---

(١) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٢٦ .
(٢) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٨٠ .
(٣) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٥٢ .

وساعد الخليفة العزيز على اضفاء العظمة والأبهة على قصوره ، ما خلفه له أبوه المعز لدين الله من أمـــوال طائلة ، فيذكر المؤرخ المقريزى (١) ان المعز حمل أمواله من المغرب الى مصر على ألف بعير ، وسبك الدنانير على شكل الطواحين ، وجعل على كل جمل قطعتين ، واحتشد الجند والناس يرون هذه الأموال الفخمة ويتعجبون من أمرها .

جولة فى قصر العزيز بالله :

أصبحت الدولة الفاطمية من أعظم الدول الاسلامية حضارة وثراء ورخاء وتقـــدما ، فى ميادين العلم والفنون ، وأصبحت قصورهم صورا فنية رائعة ، حفلت بالتحف والذخائر والمجوهرات الثمينة ، تثبت ثراء الدولة ، وتقدم فنونها وصناعاتها ، ورقى حضارتها .

ولتسمح لنا أيها القارىء الكريم أن نصحبك فى جولة بقصور العزيز بالله . ولنتوقف قليلا عند دار الكسوة ، التى تقوم بتفصيل جميع أنواع الثياب ، التى يهبها الخليفة العزيز لموظفيه ورعاياه ، صيفا وشتاء . وتحدث المؤرخ المقريزى (٢) عن هذه الدار فقال : « كانوا يخرجون من خزائن الكسوة الى جميع خدمهم وحواشيهم ، ومن يلوذ بهم من صغير وكبير ورفيع وحقير ، كسوات الصيف والشتاء ، من العمامة الى السراويل وما دونه من الملابس والمناديل ، من فاخر الثياب ، ونفيس الملبوس ، ويقدمون لهم جميع ما يحتاجون اليه من نفيس المطعومات والمشروبات » .

وكان القماش يحمل الى دار الكســـوة من تنيس ودمياط والاسكندرية ، ويقـــوم بتفصيله « صاحب المقص » وهو رئيس الخياطين ، يساعده عدد كبير من العمال . فيعدون ملابس الخليفة

---

(١) اتعاظ الحنفا ص ٦٥ .

(٢) الخطط ج ١ ص ٤٠٩ .

وما يحتاجه من خلع ، ثم ينقل ما يتم اعداده الى (خزانة الكسوة الباطنة) تتولاها امرأة تسمى « زين الخزان » وتساعدها ثلاثون جارية ، ويغير الخليفة ثيابه في هذه الخزانة ، وتقوم هذه المرأة بتعطير ثياب الخليفة ، ويحمل اليها فى كل يوم كثير من الأزهار لتقوم بهذه المهمة .

وحوت خزانة الكسوات على جميع أنواع الثياب المصنوعة فى دار الطراز ، أو المجلوبة من البلاد الاسلامية ، فتفصل فيها كسوة الشتاء والصيف لرجال القصر ونسائهم وأولادهم وخدمهم ، كما تصنع فيها خلع الأمراء والوزراء وكبار الموظفين ، من الثياب والعمائم المذهبة ، وبلغ ثمن العمامة خمسمائة دينار . كما تصنع بها الأطواق والسيوف المحلاة للخلع على الأمراء ، وعقود الجواهر للخلع على الوزراء . وتصنع بها الثياب الحريرية المطرزة بالذهب التي يخلعها الخليفة على كبار رجال الدولة فى الأعياد والمواسم . وأمدنا المقريزى بتفصيلات كثيرة ، وتحدث عن مخصصات الخليفة والأمراء وموظفى الدولة ونسائهم وأولادهم ، فى الشتاء والصيف ، من الملابس التى كانت تصنع بدار الكسوة ، ومقدار وقيمة كل كسوة .

وكان يصنع للخليفة كسى مختلفة ، يصلح كل منها لاحتفال خاص ، وكانت موشاة بخيوط الذهب والفضة ، وبلغ ثمن بعضها خمسمائة دينار ، وأنفق على المنديل الواحد خمسة دنانير . وفى عيد أول رمضان ، وفى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ، وفى جبر الخليج ، كان الخليفة يمنح وزراءه وأسرة الخليفة الحلل المزركشة بالذهب ، كما كان يمنح الشعراء والكتاب والأعيان حللا من الحرير ، بعضها مزركش بالذهب . ويمنح الخليفة كثيرا من الملابس فى عيد الفطر حتى انهم سموه عيد الحلل (١) .

(١) المقريزى الخطط ج ١ ص ٤١٠ .

ولنترك دار الكسوة ، فنجد خزائن الجوهر والطيب والطرائف ، وقد اشتهر العزيز بالله بأنه خبير بالجواهر الثمينة ، وقد ابتكر أنواعا جديدة من العمامات والأحزمة المرصعة بالمجوهرات ، والسروج الموشاة بالذهب . وكان يحتفظ فى هذه الخزائن بسيوف الخليفة ورماحه وغيرها من الأسلحة التى يحتاجها موكب الخليفة ، الى جانب الطيب والصندل والأبنوس والعود والعاج ، وكان العزيز يحرص دائما على تعطير ملابسه بالعنبر .

ثم نصل الى خزائن السلاح ، وتحوى أنواعا مختلفة من الأسلحة ، فهناك الخوذ المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف العربية والرماح والأسنة والقسى والنبل والدروع ، وغير ذلك من الأسلحة ، ويتولى أمرها عدد كبير من العمال ، تمدهم الدولة بحاجتهم من الحديد والخشب والأصباغ .

واذا انتقلنا الى احدى قاعات القصر الكبيرة ، نجد خزانة السروج ، فتحوى السروج واللجم من الذهب والفضة ، التى يحتاجها الخليفة ورجاله . وقد ابتكر العزيز نوعا من السروج الموشاة بالذهب كما رأينا . وهذه هى خزائن الفرش والأمتعة ، وكثيرا ما تردد الخليفة العزيز عليها ليتفقدها ، وكانت تحوى أثمن الفرش والستور والأمتعة . وهذه هى خزانة الشراب تحوى أنواعا عديدة من الأشربة والأدوية والعطور الفاخرة ، الى جانب الأوانى والصحون المختلفة . وهذه هى خزائن الطعام التى تعد الأسمطة والولائم الكثيرة التى أقامها الخليفة العزيز بالله . وهناك أيضا خزائن الخيم ، وخزائن البنود أى الأعلام والرايات ، وغيرها من الخزائن . وألحق بالقصر حاصلان للمواشى أحدهما للخيول والبغال ، والآخر للابل .

ويلحق بالقصر دار للضيافة ، فقد اتسعت الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة العزيز بالله ، وشملت كثيرا من الأقطار ، كما كان لها علاقاتها الدولية ، وأصبحت القاهرة مقصد كثير من السفراء وكبار

الضيوف . ويتولى هذه الدار موظف كبير يسمى (متولى دار الضيافة) أو (النائب) يختار من كبار الشخصيات وأرباب الأقلام ، فيقوم باستقبال كبار الضيوف ، وينزلهم فى الأماكن المناسبة حسب مراتبهم ، ويعمل على توفير وسائل راحتهم ، ويصحبهم لمقابلة الخليفة فى الموعد الذى يحدده لهم ، وكان محرما على النائب أن يتلقى هدية من الضيف الا باذن الخليفة ، وكان له نصف قنطار من الخبز كل يوم (١) .

مع العزيز بالله فى مجلس الملك :

أنشأ الخليفة العزيز بالله قاعة الذهب التى يجتمع فيها مجلس الملك ، وكانت مؤثثة بأثاث فخم ، ومزينة بالستور والطنافس الحريرية المزركشة بالذهب ، وكلها من رسم ولون واحد . وفى صدر قاعة الذهب حشية عليها عرش الخليفة ، المحجوب بستور ، حتى اذا جلس الخليفة وانعقد المجلس رفعت تلك الستور .

وينعقد مجلس الملك بأمر من الخليفة ، فكان الخليفة يبعث صاحب الرسالة الى الوزير يأمره بانعقاد المجلس . وكان صاحب الرسالة من الأساتذة ، وعمله هو حمل أوامر الخليفة الى الوزير حين يحين موعد انعقاد المجلس . واذا صدرت الأوامر للوزير ، ركب فى صحبة الأمراء الى مكان الوزير من القصر ، حيث يترجل ويمشى الى قاعة الذهب .

ويبدأ مجلس الملك برفع السترين الحريرين ، ويقوم برفعهما اثنان من الأساتذة بأمر من رئيس القصر المعروف باسم (زمام القصر) ، فيظهر شخص الخليفة العزيز بالله وحوله جماعة من القراء يأخذون فى ترتيل آيات القرآن الكريم . ثم يأتى حامل الدواة فيضعها على طرف الحشية المخصص لها . وكان زمام القصر ،

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٨ .

وصاحب بيت المال والحجاب والأمناء يأخذون أمكنتهم عند الأبواب فى الوقت الذى يكون الحاضرون قد أخذوا أمكنتهم المخصصة لهم ، وعندئذ يأخذ أحد الأمناء فى تقديم الأشخاص الذين يرى تقديمهم للخليفة .

وكان الوزير أول من يقدم الى الخليفة ، فيخطو الى الأمام ، ثم يحيى الخليفة بلثم يديه ورجليه ، ثم يتراجع الى مكانه الرفيع ويظل واقفا نحو ساعة ، فيؤذن له بوسادة يجلس عليها فى جانب الخليفة الأيمن . ثم يتلوه قاضى القضـــاة ، فيقترب من الخليفة ويحييه برفع يده اليمنى ، ويشير بمسبحته قائلا : « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » . وكانت هذه التحية ميزة له على سائر أعضاء المجلس اعترافا بمركزه الدينى الرفيع . وكان يسمح أيضا لزعماء الطوائف المختلفة بتحية الخليفة باسم جماعاتهم . وكان الأمير يزودهم قبل أن يتقدموا الى الخليفة بتعليمات توضح لهم ما يجب عليهم من اتباعه .

واذا رأى الوزير أن يشاور الخليفة فى أمر من الأمور ، وجب عليه أن يقترب منه ، ويعتمد على سيفه ، ثم يبدأ فى الحديث اليه وكان اجتماع مجلس الملك يستغرق عادة ثلاث ساعات ، تبحث فيها شئون الدولة الهامة ، فيصدر الخليفة أوامره فيها ، وكان الوزير يقترح على الخليفة تعيين كبار الموظفين أو الأشخاص الذين يخلع عليهم .

حتى اذا انتهى عقد المجلس ، انصرف الحاضرون والوزير فى آخرهم بعد أن يلثم يدى الخليفة ورجليه مرة أخرى ، ثم يركب الوزير الى داره يحف به سائر أعضاء المجلس ، ثم ينزل الخليفة عن سرير الملك ويغادر الايوان ، فتسدل الستور وتغلق الأبواب(١) .

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦٣١ .

حاشية الخليفة العزيز بالله :

كان الخليفة العزيز بالله مثله مثل سائر الخلفاء الفاطميين يميل الى مظاهر العظمة والأبهة ، وانعكست هذه الميول على بلاطه وحاشيته . وتألفت حاشية العزيز من عدد كبير من الموظفين ، فكان هناك حامل المظلة ، وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والمواكب ، ويتولى هذا المنصب أمير جليل . وهناك حامل سيف الخليفة ، وهى وظيفة كبيرة أيضا ، وصاحبها يحمل سيف الخليفة فى المواكب ومرتبه سبعون دينارا شهريا . وهنـاك حامل رمح الخليفة ، وهو رمح صغير يحمله هذا الموظف فى المواكب ، ومرتبه أيضا سبعون دينارا فى كل شهر . وهناك أيضا حمـلة السلاح أو الركابية وصبيانهم ، وكان عددهم يزيد على ألف رجل ، متقلدين السـيوف ، يسيرون على يمين ويسار الخليفة ، تحت رياسـة اثنى عشر مقدما ، وكان مرتب كل من مقدمى الركابية خمسين دينارا شهريا ، ومرتب كل نفر من الركابية من خمسة الى خمسة عشر دينارا شهريا .

ومن أبرز رجال حاشية الخليفة العزيز بالله ، الأسـاتذة المحنكون ، وقد سموا بالمحنكين لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن . وكان مرتب كل منهم مائة دينار شهريا ، وهم الخدام الخصيان المسمون (الطواشية) ، وكانوا أقرب رجال الحاشية الى الخليفة ، وكان اذا تولى أحدهم منصبه بعث الخليفة اليه بدلة كاملة من ثيابه ومنديلا وفرسـا وسيفا ، وزاد عدد هؤلاء الأساتذة المحنكين على الألف .

وتولى كل أستاذ منهم مهمة خاصة ، فمنهم (متولى شد التاج) ويقوم بشد تاج الخليفة الذى يضعه فى المواكب الرسمية ، فيشده بمنديل من لون ملابس الخليفة فى ذلك اليوم . ومنهم (صـاحب المجلس) وهو الذى يشرف على مجلس الخليفة ، وينبىء الوزير

وكبار رجـــال الدولة بموعد الاجتماع . ومنهم أيضا (صاحب الرسالة) وهو الذى يوصل رسائل الخليفة الى كبار رجال الدولة . ومنهم أيضا (متولى زمـــام القصر) فيشرف على شئون القصر المختلفة . ومنهم (صاحب الدفتر) أى دفتر المجلس ، ويشرف على دواوين قصر الخليفة . ومنهم (حامل الدواة) وهى دواة الخليفة التى يسير بها فى الموكب ومنهم (متولى زمام الأقارب) ويشرف على شئون أقارب الخليفة ، ومنهم (متولى زمام الرجال) ويشرف على اعداد طعام الخليفة .

وينضم الى حاشية الخليفة (صبيان الخاصة) وهم أولاد الأجناد والأمراء وعبيد الدولة الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة ، وكان عددهم نحو الخمسمائة . وهناك أيضا (صبيان الحجر) وكانوا شبانا يزيد عددهم على خمسة آلاف ، يتميزون بالشهامة وكرم الأخلاق ، ويعهد الخليفة اليهم ببعض المهام .

ومن رجال الخليفة ، طبيبه الخاص ، وكان أبو الفتح سهـــل ابن معشر ، وهو مسيحى ، طبيب الخليفة العزيز بالله . وكان يجلس على باب الخليفة كل يوم مستعدا لمعالجته هو وأسرته ، ومرتبه خمسون دينارا شهريا ، ويعاونه ثلاثة أو أربعة أطبـــاء لمعالجة مرضى القصر من الأقارب والحاشية ، ومرتب كل منهم عشرة دنانير شهريا ، ويكتبون رقاعهم على (خزانة الشراب) وهى صيدلية القصر .

ومن رجال قصر الخليفة (قراء الحضرة) وكانوا يزيدون على العشرة ، يقرأون القرآن الكريم بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المواكب وفى مختلف المناسبات وكانوا يأتون فى قراءاتهم بآيات مناسبة للحال ، فتقع موقع الاستحسان عند الخليفة والحاضرين ولكل من قراء الحضرة من عشرة دنانير الى عشرين دينارا فى كل شهر (١) .

---

(١) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٩٢ .

الدعوة الفاطمية فى قصر العزيز بالله :

أصبح القصر فى عصر العزيز بالله ، كما كان فى عصر أبيه المعز لدين الله ، مركزا من مراكز الدعوة الفاطمية . وكان يتولى أمر الدعوة الاسماعيلية موظف كبير يسمى (داعى الدعاة) يلى قاضى القضاة فى الرتبة . وخصص لداعى الدعاة مكان خاص فى قصر الخليفة ، هو دار العلم ، وكان دعاة الاسماعيلية يتصلون به ويتلقون عنه الأوامر ، ويقدمون له فى يومى الاثنين والخميس ما أعدوه للمحاضرة فى أصول المذهب الاسماعيلى . وكان داعى الدعاة يعقد المجالس ويقرأ على الناس مصنفاته ، ويجلس على كرسى الدعوة فى الايوان الكبير ، فيحاضر الرجال ، ويعقد للنساء مجلسا خاصا يسمى (مجلس الدعوة) حيث يلقنهن أصول المذهب .

وصف المقريزى هذه المجالس ، فذكر أنه كانت تختلف تبعا لاختلاف طبقات الناس فكان لآل على بن أبى طالب مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة مجلس ، ولمن يتصل بالقصور من الخدم وغيرهم مجلس ، وللعامة والقادمين من البلاد الأجنبية مجلس ، وللحرم وخواص نساء القصور مجلس خاص بهن . واذا فرغ داعى الدعاة من القاء محاضراته على المؤمنين والمؤمنات ، أقبلوا عليه يقبلون يده ، فيمسح على رءوسهم بالجزء الذى عليه توقيع الخليفة . وكان داعى الدعاة يتسلم كتب الدعوة التى تقرأ على الناس فى القصر من سلفه المباشر . أما هذه الكتب فقد ألفها علماء مشهورون من أمثال أبى حنيفة النعمان المغربى ، ويعقوب بن كلس وزير العزيز بالله .

قلد الخليفة العزيز بالله قاضى القضاة محمد بن النعمان منصب الدعوة الى المذهب الفاطمى فى القصر ، كما كان أخوه الحسين يتولى الدعوة فى القاهرة . ووصف المقريزى (١) مجلس محمد بن النعمان

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٣٩١ .

فى قصر الخليفة العزيز بالله سنة ٣٨٥ هـ فقال : « جلس على كرسى بالقصر لقراءة علوم آل البيت ، على الرسم المعتاد المتقدم له ولأخيه ـ أى على بن النعمان ـ بمصر ، ولأبيه ـ أى أبو حنيفة النعمان ـ بالمغرب » . وكان قصر العزيز بالله مزودا بمكتبة كبيرة تحوى كثيرا من كتب الدعوة الفاطمية ، وسمح لعامة الناس بالاطلاع على كتبها .

اعتمد الخليفة العزيز بالله على بيت النعمان فى نشر الدعوة الفاطمية . وكان أبو حنيفة النعمان أول من أسس الدعوة الاسماعيلية فى عهد الخليفة المعز ، ولكنه مات بعد أن وصل فى صحبة المعز بسنة واحدة (٣٦٣ هـ) . وكان على بن النعمان يجلس فى سنة ٣٦٥ هـ ليشرح كتاب (الاقتصار) الذى وضعه أبوه ، ويمليه على الناس . ويحوى الكتاب مسائل فقهية مستمدة من الأئمة العلويين ، واهتمت الحكومة الفاطمية بتنظيم هذه المحاضرات وتسجيل أسماء من يحضرونها فى سجلات خاصة (١) .

اعتمد الخليفة العزيز بالله على كتب أبى حنيفة النعمان فى نشر الدعوة الفاطمية . ومن أشهر كتبه (دعائم الاسلام فى ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام) وقد ألفه بتكليف من الخليفة المعز ، ويتحدث عن الفقه الاسماعيلى ، واعتمد الخليفة العزيز بالله عليه فى نشر الدعوة الاسماعيلية واصدار الأحكام فى الفتاوى . وقد نهج يعقوب بن كلس وزير العزيز نهج النعمان حينما وضع كتابه (مصنف الوزير) . ومن أشهر كتب النعمان (كتاب المجالس والمسايرات) وهو من أهم المصادر التاريخية المعاصرة للمعز لدين الله ، وتحدث عن علاقاته بالدولة الأموية بالأندلس . وبالدولة البيزنطية ، وبجزيرة كريت . كما يعتبر الكتاب أيضا من أهم كتب الدعوة الاسماعيلية لأن النعمان استمد مادته من الخليفة المعز

---

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٤١ .

باعتباره الامام الفاطمى ، وأصبح هذا الكتاب فى عهـــد الخليفة العزيز بالله من أهم مصادر الدعوة الفاطمية فى قصر الخليفة وفى المساجد .

ومن المؤلفات التى اعتمد عليها الخليفة العزيز بالله فى الدعــوة الفاطمية ، كتب جعفر بن منصور اليمنى ، الذى نال تقدير الخليفة المعز لدين الله وتقديره ، ومن أشهر مؤلفاته كتاب (تأويل الزكاة) الذى ألفه ســـنة ٣٦٠ هـ ، ومن كتبه أيضا (سرائد النطقاء) و (الشواهد والبيان) .

وكان العزيز بالله متفقها فى الدعوة الاسماعيلية ، وقد اعتمد وزيره يعقوب بن كلس على كثير من آرائه فى رسالته التى وضعها باسم (الرسالة الوزيرية) والتى تبحث العقائد الفاطمية . وكان يقرأها على الناس فى جامع عمرو بن العاص .

رقيق وجوارى القصر :

حفل قصر الخليفة العزيز بالله بكثير من الرقيق والجوارى ، مثلما كان متبعا فى قصـــور الأخشيديين والفاطميين . وجلب النخاسون الى مصر كثيرا من الغلمان والجوارى ، من النوبة والحبشة والســـودان والتركستان وغيرها ، ممن حسن منظرهم وكثرت شجاعتهم ، وساعدهم على ذلك ما كان فيه الخـــلفاء من البذخ والثروة ، فعهد اليهم الخليفة بخدمة قصره وحراسته وأسند اليهم أعلى المناصب وجعلهم من خاصته وحاشيته .

وخصص الخليفة عددا من الخصيان من الرقيق لخدمة حريم القصر أو الخليفة نفسه ، فكانوا أحيانا يحفون بالخليفة مطلقين البخور على جانبى طريقه اذا خرج مثلا لجبر الخليج . ولقد بلغ عدد الرقيق فى قصر الخليفة عدة آلاف ما بين أشراف وخدم .

وكان لست الملك ابنـــة الخليفة العزيز أربعة آلاف جارية منهن ١٥٠٠ جارية من الأبكار والبـــاقى من الثيبات (١) . والى جانب المحظيات من الجوارى ، كانت هناك الراقصات والمغنيات . وكلما زاد الخليفة المعز لدين الله من جوارى المغاربة فى القصر ، زاد ابنـــه الخليفة العزيز بالله من جوارى الأتراك (٢) .

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٥١ .
(٢) نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين ص ٨٠ .

العزيز بالله
صفاته . أسرته . وفاته

أخلاق العزيز بالله وصفاته :

وصف المؤرخ ابن الأثير الخليفة العزيز بالله فقال أنه كان أسمر اللون طويلا ، أصهب الشعر ، أزرق العينين كبيرهما ، عريض المنكبين ، عارفا بالخيل والجواهر (١) .

وأجمع المؤرخون الأقدمون والمحدثون على امتداح الخليفة العزيز بالله ، فلم يعرف عنه أنه شرب الخمر ، أو مارس ما كان يمارسه بعض الخلفاء من عبث أو مجون ، بل انصرف الى شئون دولته والاهتمام برعاياه وجمع حوله طائفة من العلماء والفقهاء والشعراء ، فكان العزيز يهتم بالعلم والثقافة ويجيد عدة لغات ، وقام بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة علمية كبرى بعد أن كان معهدا خاصا بدراسة الفقه الشيعى واقامة الصلاة . وقام بتنمية مكتبة القصر وتزويدها بآلاف من الكتب ، على النحو الذى ذكرناه آنفا . كما كان العزيز جادا فى بلاطه رغم أنه تولى الخلافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره أى سن الشباب المبكر .

وكان العزيز بالله شاعرا مجيدا ينظم كثيرا من القصائد فى المناسبات المختلفة فروى الثعالبى (٢) أنه قال فى يوم عيد ، وقد مات ابنه وجلس للعزاء :

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٨١ .

(٢) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٥٤ .

نحن بنو المصطفى ذوو أحن   جرعها فى الحيـــــاة كاظمنا
عجيبة فى الأنام محنتنـــــا   وأولنا مبتلى وآخـــــرنا
يفــرح هـــذا الورى بعيدهم   طرا وأفراحنـــا مآتمنـــا

واشتهر الخليفة العزيز بالله مثله مثل سائر الخلفاء الفاطميين بحب الأبهة حتى قيل « أن خيوله كانت تكسى الزرد المطعم بالذهب وتغطى بأقمشة مرصعة بالجواهر ومعطرة بالعنبر » . وهو أول من سار فى موكب حافل الى الجامع فى كل يوم جمعة من رمضان للصلاة بالناس ، واهتم بانشاء المبانى الفخمة وابتكر العـــزيز بالله لبس العمامة الموشـــاة بالذهب والأحزمة المرصعة بالمجوهرات والمعطرة بالعنبر الأســـود والسرج الموشى بالذهب ، فقد مال الى الترف والرفاهية (١) .

وكان العزيز بالله خبيرا بالجواهر الثمينة يميز بينها ويقـــدر أثمانها وقيمتها الفنية . وكان له هواياته فقد شغف بجوارح الطير الغريبة وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . وكان مغرما بالصيد ، وخاصة صيد السباع (٢) وقد وصف المؤرخ ابن الأثير العزيز بالله فقال عنه انه كان صيادا جريئا ماهرا . كما كان شغوفا بجلب الأسماك الجميلة من البحر . ويشبهه المؤرخون فى هـــذه الهوايات بخمارويه بن أحمد بن طولون . كما اهتم العزيز بالله بالخيل فاقتنى عددا كبيرا منها واهتم بتفقدها واستعراضها .

---

(١) لينبول : سيرة القاهرة ص ١٣١ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٥٣ .

ويعلق المؤرخ (لينبول) (١) على هوايات الخليفة العزيز بالله فيقول : غير أن العزيز فى الوقت نفسه كان يشبه أباه فى حبه للسياسة وادارة شئون البلاد ، ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر فى الحد من مقدرته السياسية أو الادارية فقد بنى أسطولا ليحارب الامبراطور باسيل كما أنه شهد بنفسه حملة موفقة على سوريا التى لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين وكان عهده عهد سلام دائم فى مصر وكان اسمه يذكر فى صلاة الجمعة فى المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلسى .

واشتهر الخليفة العزيز بالله بالكرم والعفو وسماحة الأخلاق ويدلل المؤرخون على هذه الصفات بموقف العزيز بالله من أفتكين التركى بعد أن نجح فى أسره . فقد عفا عنه وأغدق عليه الصلات وخصص له دارا ليقيم فيها وسمح له بالتردد على بلاط الخليفة واعترف أفتكين بكرم الخليفة وسماحته فقال : « لقد احتشمت من ركوبى مع الخليفة مولانا العزيز بالله ونظرى اليه مما غمرنى من فضله واحسانه » . ونقل حيدرة عم العزيز بالله الى الخليفة « مقالة أفتكين » فقال العزيز : « يا عم . أحب أن أرى النعم عند الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار وأن يكون ذلك كله من عندى »(٢) .

وعلق (آدم متز) على موقف العزيز بالله من افتكين التركى فقال : وقد ضرب العزيز أول مثل للفروسية بما تنطوى عليه من العفو وكبر القلب وهى التى أثرت فيما بعد تأثيرا فى الغرب .

واشتهر العزيز بالله بالشجاعة والجرأة وبدت هذه الصفات واضحة وقت السلم فى شغفه بالصيد وخاصة صيد السباع . وفى وقت الحرب ، اذ قاد بنفسه الجيش الفاطمى فى قتال أفتكين

---

(١) سيرة القاهرة ص ١٣٢ .
(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٠ — ٢١ .

التركى والقرامطة فى الشام ونجح فيما أخفق فيه القائد المشهور جوهر الصقلى فقد اضطر جوهر الى الانسحاب من بلاد الشام وعاد الى الخليفة العزيز بالله فقال له : « ان كنت تريدهم فاخرج بنفسك اليهم والا فانهم واردون على أثرى » .

ويعتبر عصر العزيز بالله عصر تسامح دينى فقد نعم أهل الذمة فى مصر بفترة هدوء وسلام واطمئنان . وفى رأينا أن هذا التسامح لا يرجع الى زواج العزيز بالله من مسيحية كما يذكر المؤرخون ولكن هذا التسامح كان جزءا من أخلاق العزيز بالله وصفة من صفاته وقد شهدنا هذا التسامح على صور كثيرة فكان متسامحا مع أعدائه وخصومه وكان حريصا على اكتساب محبة رعاياه من غير المسلمين . وهى السياسة التى وضع بذورها أبوه المعز لدين الله حين احتفل بالأعياد غير الاسلامية مثل عيد الميلاد وعيد الغطاس كما احتفل بالأعياد المصرية القومية مثل الاحتفال بوفاء النيل كما اتسع تسامح العزيز بالله فشمل اليهود فى مصر أيضا .

كما كان العزيز بالله يمثل الخليفة العالم المثقف تمثيلا صادقا وقد تحدثنا عن النهضة العلمية والثقافية فى عهده وشهدنا تشجيعه للعلماء والفقهاء والشعراء ، والاهتمام بالمكتبات ودور العلم .

كان العزيز بالله يرتدى فى قصره ثيابا خاصة تتميز بأن أكمامها قصيرة وكان يلبس من الكساء قفطانا وجبة وقباء ويتشح بالعباءة ويلبس قلنسوة مزينة بجوهرة غالية . فاذا ركب العزيز فى أيام الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان يلبس توقيرا للصلاة الثياب البيضاء والمنديل والطيلسان . وفى صلاة عيد الفطر يلبس الثياب البيضاء الموشحة ويلبس فى يوم الاحتفال بوفاء النيل ثوبا يسمى (البدنة) من حرير مرقوم بالذهب . وفى الاحتفال بصلاة عيد الأضحى كان العزيز بالله يرتدى ثيابا من الحرير الأحمر الموشح لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يلبس برده الأحمر فى العيدين

والجمعة . وكان العزيز يخلع على وزيره ثيابه الحمر التى كانت عليه (١) .

واذا خرج العـــزيز بالله فى الموكب تقلد السيف العربى المطعم بالجواهر وكانت له حمائل يعلق بها على الكتف الأيمن وهو مدلى على الجنب الأيسر . وكان يضع على رأسه تاجا عظيما يسمى التـــاج الشريف وهو تاج الخلافة ومحلى بالجواهر الثمينة التى كان العزيز بالله خبيرا بهـــا . فكان يعلو التاج درة يتيمة زنتها سبعة دراهم . وكان العزيز يمسك بيده قضيب الملك وهو عود طوله شبر ونصف وهو مذهب محلى بالجواهر .

أسرة العزيز بالله :

العزيز بالله ، هو سليل الأسرة الفاطمية المجيدة التى ينتهى نسبها الى الرسول صلى الله عليه وسلم ويعتز الفاطميون بأنهم اكتسبوا اسمهم من السيدة فاطمة رضى الله عنها ابنة الرســـول وزوجة على بن أبى طالب رضى الله عنه . والعزيز بالله هو خامس الخلفـــاء الفاطميين وثانى الخلفاء الفاطميين بمصر . وأبوه هـــو الخليفة المعز لدين الله (معد أبو تميم) الذى نجح فى تحقيق الحلم الكبير الذى كان يراود الخلفاء الفاطميين الثلاثة الأوائل وهو نقل الدولة الفاطمية من بلاد المغرب الى مصر حتى ترث الدولة الفاطمية ممتلكات الدولة العباسية فى المشرق . وقد أطنبنا الحديث عن المعز وامتداحه وشهدنا الكثير من معالم سياسته واصلاحاته مما لا يدع مجالا لتكرارها .

وصف صاحبا كتاب (المعز لدين الله) هذا الخليفة فقالا : يعتبر المعز لدين الله مثلا أعلى للخلفاء الفاطميين فقد كان يتصف بصفات رفعته الى مصاف كبار الملوك والسلاطين فكان قوى العزيمة يواجه

---

(١) الخطط جـ ١ ص ٢٨٧ .

الصعاب دون خوف أو وجل ، يقف فى عزم ثابت فى وجه الثـورات التى يزكى نيرانها الخارجون على الدولة ويتصدى لمناوأة الأمراء الذين يعملون على الاستقلال عن الفاطميين . كما كان المعز رحب الصدر كثير الحلم وخصوصا نحو الرعية حتى كانوا يهرعون اليه اذا رأوه ، ويرفعون اليه ظلاماتهم فيسمع لكل واحد منهم على حدة وينهر من يقف فى وجههم ، وكان المعز يضرب به المثل فى حلمه مع خدمه وعبيده . أما تقوى المعز وورعه فحدث عنهما ولا حرج . كما اشتهر المعز بالجـود ، كما كان عالما ، متوفرا على البحث والاطلاع .

وكان للعزيز اخوة كثيرون نذكر منهم عبد الله وعقيل وقد احتفل أبوهم الخليفة المعز ـ كما ذكرنا ـ باختتانهم احتفالا شائقا بهيجا . ومن اخوة العزيز البارزين تميم بن المعز ، الذى توفى سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٤ م) وقد تبوأ عرش الأدب تاركا عرش الخلافة لأخيه نزار أى العزيز . وكان شعره يتدفق رقة وسلاسة مع الميل الى الحزن والجنوح الى الغزل والاشادة بمآثر الفاطميين وهجاء خصومهم السنيين .

افتخر تميم بانتسابه الى السيدة فاطمة بنت الرسول وهجا العباسيين . فأنشد يرد على ابن المعتز العباسى الذى كان يشـبد بالعباسيين :

يا بنى هاشم ولسنا سـواء	فى صـغار من العـلا وكبار
أن نكن ننتمى لجـد فانا	قد سبقناكم لكل فخـار
ليس عباسـكم كمثل على	هل تقاس النجـوم بالأقمار ؟

وكان تميم بن المعتز يرد بهذه الأبيات على أبيات ابن المعتز الذى أنشـد :

هاشـمى اذا نسبت ومخصـو
ص ببيت من هاشم ، غير عـار

اخزن الفيظ فى قلوب الأعـــــادى
واحل الجبـــار دار الصغـــار

واشتهرت فى عهد الخليفة العزيز بالله السيدة تغريد زوجة المعز وقامت سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) ببناء مسجدها بالقرافة وقد تولى زخرفته جماعة من الفنانين من أهل البصرة . كما بنت هذه السيدة قصر القرافة وقد تحدثنا عن المسجد والقصر عنـــد حديثنا عن القاهرة فى عهد العزيز بالله .

ومن أخوات العزيز بالله رشيدة وعبدة . وقد حازتا ثروات كبيرة مثلهما فى ذلك مثل سائر أفراد الأسرة الفاطمية . فقد تركت السيدة رشيدة ما يقرب من مليون ونصف من العملة الذهبية وتركت الأخرى وهى السيدة عبدة كثيرا من خزائن الحلى والصناديق التى تحتوى على خمسة أكياس من الزمرد ، وثلثمائة قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى وغير ذلك من الذخائر .

وصف المقريزى تركة السيدتين فقال : « ووجد للسيدة رشيدة ابنة المعز حين ماتت فى سنة اثنتين وأربعين وربعمائة ما قيمته ألفا ألف دينار وسبعمائة ألف دينار من جملته ثلاثون ألف ثوب خز مقطوع واثنا عشر ألفا من الثياب المصمت ألوانا .. ووجد لعبدة بنت المعز أيضا وماتت فى سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة ما لا يحصى .. ان خزائن السيدة عبدة ومتاجرها وصناديقها ما يجب أن يختم عليه ذهب من الشمع فى خواتيمه على الصحة والمشاهدة أربعون رطلا بالمصرى . وان بطائق المتاع كتبت فى ثلاثين رزمة ورق . ومما وجد لها أيضا أربعمائة قمطرة وألف وثلثمائة مينا فضة مخرقة زنة كل مينا عشرة آلاف درهم وأربعمائة سيف محلى بالذهب وثلاثون ألف شقة صقلية . ومن الجوهر ما لا يحـــد كثرة وزمرد كيلة أردب واحد » (١) .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٤١٥ .

تزوّج الخليفة العزيز بالله بسيدة رومية مسيحية على المذهب الملكانى وهو مذهب كنيسة القسطنطينية فولدت له ابنه الحاكم بأمر الله وابنته ست الملك . وكان لزوجة العزيز منزلة كبيرة لديه حتى أن الخليفة عين أخويها بطريركين ، أحدهما فى الاسكندرية والآخر فى بيت المقدس .

ويبدو أن العزيز بالله قد سـار على سنة أبيه الخليفة المعز لدين الله فى الاكتفاء بزوجة واحدة وعدم تعدد الزوجات . فقد كان المعز ــ كما ذكرنا ــ ينصح رجاله ووجوه القوم بذلك فيقول : « فحسب الرجل الواحد الواحدة ونحن محتاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم » (١) .

اشتهرت ست الملك ، ابنة العزيز بالله ، بالحزم ورجاحة العقل ، وامتازت بالكرم والحلم وعرفت بالتسامح الدينى وكثيرا ما كانت تعطف على غير المسلمين . وكانت فى السادسة والعشرين من عمرها حين توفى أبوها وكانت مع أخيها الحاكم بأمر الله مسلوبة السلطة فأثار ذلك حفيظتها ، ولا سـيما عندما انتقد مسلكها فتآمرت ــ كمايذكر المؤرخون ــ على قتله بالاشتراك مع سـيف الدولة ابن دواس أحد شيوخ كتامة .

يروى أبو المحاسن (٢) قصة تدبير ست الملك مصرع أخيها ويذكر انها قالت لسيف الدولة : « يا سيف الدولة قد جئت فى أمر أحرس به نفسى ونفسك والمسلمين ولك فيه الخطر الأوفر وأريد مساعدتك فيه . . أنت تعلم ما يقصده أخى فيك وأنه متى تمكن منك لم يبق عليك وكذا أنا ونحن على خطر عظيم . وقد انضاف الى ذلك تظاهره بادعائه الألوهية وهتك ناموس الشريعة وناموس آبائه وقد زاد

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا ص ٦٠ ــ ٦١ .
(٢) النجوم الزاهرة جـ ٤ ص ١٨٦ .

جنونه وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلونا معه ، وتنقضى هذه الدولة أقبح انقضاء » .

وخلفت ست الملك ثروة ضخمة منها ثمانمائة جارية وثمان جرات ملأى بالمسك وكثير من الأحجار الكريمة من بينها قطعة من الياقوت تزن ثمانية مثاقيل . وكانت مخصصات هـذه الأميرة السنوية خمسين الف دينار » (١) .

وقد برزت المرأة فى العصر الفاطمى اذ أن قانون الشيعة يجيز للبنت أن ترث كل ما يترك أبواها اذا لم يكن لها أخ أو أخت . وهذا يخالف قانون مذهب السنية الذى يقضى بألا ترث البنت أكثر من نصف الثروة وكان قانون الشيعة أيضا يجعل البنت حاجبة للأعمام .

حقيقة الحاكم بن العزيز :

يعتبر الحاكم من الشخصيات الفريدة التى اختلف المؤرخون فى تقديرها والحكم عليها فقد حاروا فى تفسير تصرفاته المتناقضة وأوامره المتعارضة وتقلبه المستمر وقد اتهمه المؤرخون بالجنون أو الشذوذ ونفى بعضهم عنه الجنون أو الشذوذ . ويمكننا أن نقف موقفا وسطا فنقول ان الحاكم كان مصابا بازدواج الشخصية الى جانب نوع من جنون العظمة ـ ظهرت الصفة الأعلى واضحة فى ظهوره مرة بمظهر نصير أهل الذمة ثم اضطهاده لهم بعد فترة وجيزة وظهرت الصفة الثانية فى تأييد من نادوا بألوهيته . وفى رأينا أن الحاكم لم يكن مؤمنا تماما بفكرة التأليه ولكن اعتبرها وسيلة لاحترام رعاياه له وحرصهم على تنفيذ أوامره اشباعا لحبه للعظمة وأن يحيط نفسه بهالة من التقديس والاجلال .

---

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤١٥ .

أما ما تحدث عنه المؤرخون من شذوذ الحاكم فنرى أن الحاكم كان يريد تحقيق غايات طيبة يدفعه الى ذلك نوايا حسنة ولكنه اتبع طرقا شاذة ووسائل معوجة . فقد انتشرت فى عهده السرقات لدرجة أقلقت الناس فبدأ الحاكم يعالج هذه المشكلة فأمر الناس بتعليق المصابيح على أبواب الحوانيت والمنازل ثم أمر أرباب الحوانيت بممارسة أعمالهم التجارية ليلا (١) ثم شعر الحاكم أن انارة الشوارع أعطت فرصة لبعض العابثين للهو والمجون فرأى أن يفرض قوانين صارمة فمنع النساء من الخروج ليلا ومنع الرجال من الجلوس أمام الحوانيت . ولما لم تؤد هذه القوانين الى الأغراض المقصودة منها فرض منع التجول منذ صلاة العشاء الى صلاة الفجر مما ترتب عليه اغلاق الحوانيت ليلا .

تمتعت مصر فى عهد الحاكم برخاء اقتصادى أدى الى ترف ورفاهية وبالتالى الى نوع من الفوضى الاجتماعية ورأى الحاكم أن يقضى على هذه الفوضى ويقر الآداب الاجتماعية فمنع النساء من السير خلف الجنازات كما منعهن من الخروج من الحمامات والأسواق والتطلع من النوافذ ، وتنفيذا لأوامره نهى صانعى الأحذية عن صنع أحذية للنساء وكان هدف الحاكم من ذلك منع النساء من الاختلاط بالرجال لوضع حد للفوضى الاجتماعية .

أدى الرخاء الى اقبال بعض الناس على شرب الخمر ورأى الحاكم أن يضع حدا لذلك فالخمر مرض اجتماعى يجب الوقوف فى وجهه فمنع استيراد الزبيب أو بيعه ثم أمر كل فرد بألا يشترى أكثر من أربعة أرطال عنب فى كل مرة كما أمر باتلاف أشجار الكروم .

فسر المؤرخون بعض قوانين الحاكم بأنها قوانين شاذة ولكننا نخالفهم فى الرأى فقد أمر الحاكم الا يصطاد الصيادون سمكا بغير

---

(١) أنظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) .

قشر حرصا على الثروة السمكية في البلاد . كما منع الحاكم ذبح البقر الا فى عيد الأضحى مدفوعا بتنمية الثروة الحيوانية وقد فعل الحجاج بن يوسف الثقفى مثل هذا فى العراق ، كما تلجأ بعض الحكومات الحديثة أحيانا الى تحديد ذبح الحيوانات أو منع ذبح الاناث . وغير ذلك من القوانين التى تفرضها المصلحة العامة . كما منع الحاكم تخزين ما يفيض عن حاجة كل فرد من المواد التموينية وحدد أسعار المواد الغذائية والاستهلاكية وجعل القتل عقوبة المخالفين كما منع عجن الخبيز بالأرجل ، تحقيقيا لنظافة الغذاء الرئيسى للشعب (١) . أما ما يذهب اليه بعض المؤرخين من أن الحاكم قد منع زراعة وبيع بعض أنواع الفاكهة والخضروات فنرى أنه كان مدفوعا الى ذلك بكراهيته لكبار السنيين باعتباره زعيم الشيعة الأكبر فمنع ما كانوا يحبونه فى حياتهم .

أما سياسة الحاكم نحو أهل الذمة فيتضح فيها « ازدواج الشخصية » فقد مر أهل الذمة بفترتين متميزتين تمتعوا فى فترة منهما بالتسامح والتساهل بينما نزل بهم فى فترة أخرى ألوان من الاضطهاد . ولكن اذا عرفنا أن الحاكم فى الفترة الثانية قد لحق اضطهاده بسائر طبقات الشعب على اختلاف أديانهم أدركنا أن الحاكم لم يكن يقصد أهل الذمة بالاضطهاد (٢) .

يدافع ابن خلدون عن الحاكم فينفى عنه اتهام المؤرخين له بالكفر فيقول : « وأما ما يرمى به من الكفر وصدور السجلات باسقاط الصلوات فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته » (٣) .

---

(١) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٣٤٠ — ٣٤٢ .
(٢) انظر كتابنا (مصر العربية الاسلامية) ص ١٥٤ .
(٣) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٦٠ .

لم يكن الحاكم شريرا على طول الخط فقد مال الى التقشف والزهد فى حياته العامة والخاصة ومنع الناس من ذكر عبارة « سيدنا ومولانا » فى المكاتبات الواردة اليه وحتم عليهم أن يلقبونه بأمير المؤمنين ، كما أصدر أوامره بألا يقبل أحد له الأرض ولا يقبل يده عند السلام عليه فى المواكب . كما أمر الا يصلى عليه أحد فى الخطب الدينية والمكاتبات والمحادثات الرسمية وكان من المعتاد أن يصلى الخطيب على الخليفة كما يصلى على النبى فى خطبة الجمعة . ومنع الحاكم ضرب الطبول والأبواق حول القصر الفاطمى ونهى عن اقامة الزينات فى طريقه الى المصلى الذى أقامه بجبل المقطم وصار يخرج للصلاة فى أبسط المظاهر واهتم الحاكم بتنظيم القضاء وتطهيره من الرشوة وطارد العابثين بالأمن . وكان الحاكم زاهدا فى أموال الدولة برغم ما تكدس لديه من الأموال والتحف . وبلغ من تعففه انه اذا كثرت أملاك أحد رجاله أضافها الى خزائن الدولة (١) .

وفاة الخليفة العزيز بالله :

كانت وفاة الخليفة العزيز بالله فى مدينة بلبيس فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٣٦٨ هـ وكان قد خرج على رأس الجيش الفاطمى لقتال القرامطة وهو فى الرابعة بعد الأربعين من عمره . وكان العزيز قد ولد فى سنة ٣٤٤ هـ بمدينة المهدية وقدم الى القاهرة مع أبيه المعز سنة ٣٦٢ هـ وعهد اليه أبوه بالخلافة فخلفه فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ وهو فى الثانية والعشرين من عمره .

وروى ابن خلكان (٢) أن سبب وفاة العزيز كان حصاة فى المثانة

---

(١) جمال سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية ص ٦٤ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٢ ص ١٥٣ .

وقولنج وذكر أن طبيبه أخطأ فى وصف الدواء الذى شربه وهو فى الحمام فمات من ساعته .

وكان العزيز بالله قد خرج على رأس جيشه قاصدا بلاد الشام لرد الهجوم البيزنطى على هذه البلاد حتى وصل الى بلبيس فاشتد عليه المرض فتخلف بها وما لبث أن توفى .

وحينما اشـــتد المرض على الغزيز بالله استدعى اليه القاضى محمد بن النعمان المغربى وأبا محمد الحسن بن عمار زعيم كتامة واستشارهما فى تولية ابنه المنصور أبى على الذى أصبح لقبه بعد توليه الخلافة (الحاكم بأمر الله) .

تحدث الحاكم عن يوم وفاة أبيه فقال : « استدعانى والدى قبل موته وهو عارى الجسد وعليه الخرق والضماد وقبلنى وضمنى اليه وقال : وا غمى عليك يا حبيب قلبى ودمعت عيناه ثم قال : « امض ياسيدى فالعب فأنا فى عافية » . ثم قال الحاكم : « فمضيت والتهيت بما يتلهى به الصبيان من اللعب » .

وكان الحاكم بأمر الله قد ولد فى يوم الخميس لأربع ليال بقين من شهر ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ وقد عهد اليه أبوه فى سنة ٣٨٣ هـ بولاية العهد ثم بويع للحاكم فى اليوم الذى توفى فيه أبوه العزيز أى فى شهر رمضان سنة ٣٨٦ هـ وعمره احدى عشرة سنة ونصف سنة وتولى الوصاية عليه مربيه وأستاذه برجوان .

وكان لنبأ وفاة الخليفة العزيز بالله وقع شديد فى القـــاهرة فقد ودعوه قبيل خروجه عـــلى رأس الجيش الفاطمى لقتـــال البيزنطيين فى احتفال رائع ولكنه كان الوداع الأخير . ولما علم أهل القـــاهرة بوفاة العزيز وتولية الحاكم بأمر الله الخلافة ، خرجوا لاستقبال الخليفة الجديد ابن خليفتهم المتوفى المحبوب ، ودخـــل الحاكم القاهرة وبين يديه البنود والرايات وعلى رأسه المظلة يحملها

ريدان الصقلبى ، فدخل القصر عند غروب الشمس وبين يديه جثة أبيه فتولى غسله القاضى محمد بن النعمان ودفن مع أبيه المعز فى احدى حجرات القصر الشرقى الكبير (١) .

وبعد وفاة العزيز بالله اضطربت الأحوال السياسية فى الدولة الفاطمية فقد ثار الكتاميون وهم عصب الخلفاء الفاطميين على الحاكم بأمر الله منتهزين فرصة صغر سنه ، وطلبوا منه عزل عيسى ابن نسطورس وتولية زعيمهم أبى محمد الحسن بن عمار وهددوا الخليفة بالامتناع عن تقديم فروض الطاعة والولاء وبالقتل اذا لم يصغ الى شكواهم ويحقق رغباتهم . فلم ير الحاكم بدا من اجابتهم الى مطالبهم فأسند الوساطة الى ابن عمار . ولم يلبث أن ظهر سوء ادارته فى كثير من الوجوه فقد بالغ فى محاباة الكتاميين وأبطل أعطيات الأتراك واعتمد على أحداث المغاربة مما أثار مشاعر الأتراك . وكان برجوان ينافس ابن عمار ويناوئه ويعضده الأتراك فى هذا النزاع . وأدى هذا الصراع الى هرب ابن عمار الى الصحراء وحل محله برجوان (شعبان ٣٨٧ هـ) ولما شعر الحاكم أن سلطته مسلوبة مع هذا الوزير عمل على التخلص منه فقتل فى حديقة داره (١) .

((تم بحمد الله تعالى))

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٤ .

المصـــــــادر

وقد ورد ذكرها كلها فى حواشى الكتاب

آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القـرن الرابع الهجرى (ترجمة الدكتور عبد الهادى أبو ريده) .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

أوليرى : A Short History of the Fatimed Khalifate

البغدادى : الفرق بين الفرق .

البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب .

الثعالبى : يتيمة الدهر .

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى .

ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر .

حتى (فيليب) : تاريخ العرب (ترجمة مبروك نافع) .

حسن ابراهيم (الدكتور) : تاريخ الدولة الفاطمية .
المعز لدين الله (بالاشتراك مع الدكتور طه شرف) .

ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر .

ابن خلكان : وفيات الأعيان .

ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقدة الأمصار .

دوزى : المسلمون فى اسبانيا .

زكى محمد حسن (الدكتور) : فنون الاسلام .

ستانلى لينبول : سيرة القاهرة (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم وآخرين) .

السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

الشهرستانى : الملل والنحل .

عطية مشرفة (الدكتور) : نظم الحكم بمصر فى عهد الفاطميين .
على حسنى الخربوطلى (الدكتور) : مصر العربية الاسلامية .
على مبارك : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة .
أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق .
القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الانشا .
الكرملى : (انستاس مارى) النقود العربية وعلم النميات .
الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة .
ماجد (الدكتور عبد المنعم) : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر .
الماوردى : الأحكام السلطانية .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
المقريزى : المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار .
اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا .
ابن مماتى : كتاب قوانين الدواوين .
ابن منجب : الاشارة الى من نال الوزارة .
محمد جمال الدين سرور (الدكتور) : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق .
النفوذ الفاطمى فى الجزيرة العربية .
مصر فى عهد الدولة الفاطمية .
الدولة الفاطمية فى مصر .
ابن ميسر : تاريخ مصر .
النعمان : المجالس والمسايرات .
هايد : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age.
ياقوت معجم البلدان .

فهرس

صفحة

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ــ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ــ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ــ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ــ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد وافى
٥ ــ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ــ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ــ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ــ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ــ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ــ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ــ مالك	أمين الخولى
١٢ ــ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ــ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ــ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ــ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ــ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ــ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ــ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ــ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ــ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ــ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ــ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ــ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

المؤلف	اسم الكتاب
د . جمال الدين الرمادى	٢٤ ـ عبد العزيز البشرى ... ...
محمد جابر الحينى	٢٥ ـ الخنساء ... ...
د . احمد فؤاد الاهوانى	٢٦ ـ الكندى ... ...
د . بدوى طبانه	٢٧ ـ الصاحب بن عباد ... ...
د . محمد عبد العزيز مرزوق	٢٨ ـ الناصر بن قلاوون ... ...
انور الجندى	٢٩ ـ احمد زكى ... ...
د . سيد حنفى حسنين	٣٠ ـ حسان بن ثابت ... ...
عقيد : محمد فرج	٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى ...
عبد القادر احمد	٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى ...
د . ابراهيم احمد العدوى	٣٣ ـ رشيد رضا ... ...
د . محمود أحمد الحفنى	٣٤ ـ اسحاق الموصلى ... ...
د . زكريا ابراهيم	٣٥ ـ أبو حيان التوحيدى ... ...
د . أحمد كمال زكى	٣٦ ـ ابن المعتز العباسى ... ...
د . ماهر حسن فهمى	٣٧ ـ الزهاوى ... ...
د . عائشة عبد الرحمن	٣٨ ـ أبو العلاء المعرى ... ...
د . حسين فوزى النجار	٣٩ ـ أحمد لطفى السيد ... ...
د . فوقية حسين	٤٠ ـ الجوينى أمام الحرمين ...
د . سعيد عبد الفتاح عاشور	٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ... ...
محمد عبد الغنى حسن	٤٢ ـ عبد الله فكرى ... ...
د . على حسنى الخربوطلى	٤٣ ـ عبد الله بن الزبير ... ...
انور الجندى	٤٤ ـ عبد العزيز جاويش ... ...
عبد الرءوف مخلوف	٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى .. ...
محمود خالد الهجرسى	٤٦ ـ محمد عبد الملك الزيات ...
محمود غنيم	٤٧ ـ حفنى ناصف ... ...
د . سيدة اسماعيل الكاشف	٤٨ ـ أحمد بن طولون ... ...
احمد سعيد الدمرداش	٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى ... ...
محمد عبد الغنى حسن	٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ... ...
د . على حسنى الخربوطلى	٥١ ـ المهدى العباسى .. ...

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار،
٥٤ ـ زرياب	د . محمود أحمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . أحمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . أنور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر